تاريخ ما بين السطور
مأساة الأميرة و الشاعر

رمضان مصطفى سليمان

ماريا والموت:
حوار في ظلام الرومانسية الألمانية

كانت الأمسية ساكنة إلا من وقع المطر على النوافذ الزجاجية في قاعة الدرس القديمة. انطفأت أصوات الطلبة واحدًا تلو الآخر ، وبقيتُ مع صديقتي التي طالما أثارتها المآسي الأدبية أكثر من أي موضوعٍ فلسفي . قالت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة تخفي وراءها قلقًا غامضًا:

سمعتك تتحدث اليوم عن المشهد الأخير في مسرحية »متسولة القرية« لهنريك فون كليست، ووصفتَه بأنه من أكثر المشاهد مأساويةٍ في تاريخ المسرح الأوروبي. لكنني لم أقرأ المسرحية ، ولم أشاهدها قط . هل تصف لي ذلك المشهد ؟

ترددتُ لحظة. كانت نبرتها الرقيقة تذكرني بماريا نفسها ، تلك المتسولة الجميلة التي هزّت وجدان كل من رآها على الخشبة أو قرأ سطور كليست المرتعشة . قلتُ متنهّدًا :

أخشى أن يصيبك الاكتئاب كما أصاب الكثيرين ، فهو ليس مشهدًا يُروى ببرود . إنه حوار بين ماريا والموت ذاته ، لكنه ليس حوار رعبٍ كما تتصورين ، بل حوار حبٍّ من نوعٍ لا يعرفه إلا من ذاق العذاب في أقصى درجاته.

شهقت صديقتي كمن تلقّى طعنة مفاجئة:

حوار مع الموت ؟ يا إلهي، ما أبشعه !

قلتُ هادئًا:

ليس هذه المرّة . إن كليست جعل من الموت عاشقًا ، وجعل من العدم مرآةً للحب . ماريا ، المتسولة الجميلة ، أحبت أمير منطقتها، وبادلها الأمير حبًّا طاهرًا ، لكن طبقته الرفيعة كانت سدًّا بين قلبيهما . يأسَ الأمير، فانتحر ، وبقيت ماريا وحيدة تتسكع بين أنقاض قلبها. وحين لم يعد في الأرض ما يستحق البقاء ، دعت الموت ليحملها إليه.

توقفتُ لحظة أستعيد كلمات كليست كما لو كنت أسمعها تُتلى من أعماق ليل ألمانيٍّ طويل. قلتُ:

تخيّلي المشهد: كوخٌ صغير في قرية تغمرها الثلوج . الموقد خافت، والمصباح يوشك أن ينطفئ . ماريا جاثية على الأرض ، تهمس باسم الأمير. فجأة ، يُفتح الباب ببطء ، وتدخل ريحٌ باردة كأنها أنفاس العدم . يظهر الموت ، لا في صورة هيكل عظمي كما في الأساطير ، بل في هيئة رجلٍ طويلٍ مهيب ، يرتدي عباءة سوداء تلمع تحت المطر . يقترب منها ، يراها ، فيسقط عند قدميها ، ويبكي بصوتٍ غليظٍ مشحون بالعاطفة قائلاً:

» كلا يا ماريا... لن آخذك إلى عالمٍ مظلمٍ لا أراك فيه من فرط ما يغشاه من ظلماتٍ بعضها فوق بعض. هناك ستتركينني لأحزاني ، وتذهبين إلى أميرك. سأبقيك في عالم الأحياء ، لأنني أحبك ، وأريد أن أراك في ضوء الحياة لا في عتمة القبور.«

قالت صديقتي بصوتٍ متحشرجٍ وقد خنقها التأثر :

يا له من مشهدٍ غريبٍ يجمع بين الرعب والرقة... كيف استطاع كليست أن يجعل الموت عاشقًا ؟

قلتُ مبتسمًا بأسى :

لأن كليست نفسه كان عاشقًا للموت. حياته كلها كانت حوارًا طويلًا معه. لقد كتب هذا المشهد وكأنه يكتب وصيته.

سألتني في لهجةٍ نصفها فضول ونصفها خوف:

من هو هذا الكاتب إذن ؟ وما الذي جعله يكتب بهذه العذوبة المأساوية ؟

قلتُ:

هنريك فون كليست ، يا صديقتي ، أحد أعظم الأدباء الألمان في مطلع القرن التاسع عشر . عاش غريبًا ، ومات غريبًا . لم تعرفه الجماهير إلا بعد موته ، كما لو أن الموت هو الذي قدمه إلى الحياة الأدبية.

قطبت حاجبيها وقالت:

أليس غريبًا أن يشتهر المرء بعد موته؟

قلتُ:

غريب ، لكنه يحدث كثيرًا في عالم الفن ، ولا سيما في ألمانيا الرومانسية. بعد موته ، قال عنه غوته ، ذلك العملاق الذي كان لا يحب أن يشاركه أحد المجد» :كنت أعرف أن في كليست جنونًا لا يُؤمَن جانبه ، وقد خفت يومًا أن يطلق النار عليّ حين انتقدت أعماله. وددت لو لم يفعل ما فعل بنفسه، فقد نال شهرته بعد موته لا بفضل ما كتب، بل بفضل موته نفسه.«

قهقهت صديقتي ضاحكة في مرارة:

إذن لم يكن غوته ناقدًا منصفًا ؟

قلتُ:

كان عبقريًا ، لكنه لم يكن رحيمًا. في قلبه حسدٌ خفي على كل شابٍ يجرؤ أن يكتب عن الحب أو الألم كما كتب هو في أحزان فرتر .وكان صديقه بتهوفن مثله في ذلك، قاسيًا على الشباب ، كارهًا لاندفاعهم ، كأن الزمن جعل من عبقريتهم جريمة لا تُغتفر.

أطرقت صديقتي ثم قالت في صوتٍ حزين:

وماذا عن موت كليست ؟ لماذا تقول إن موته كان سبب شهرته ؟

قلتُ:

لأنه اختار أن يموت كما مات أبطاله. خرج ذات صباح من عام 1811 إلى ضفاف بحيرةٍ قرب برلين مع صديقته هنرييت ، التي كانت مريضة بالسرطان. تبادلا نظراتٍ طويلة ، ثم أطلق عليها الرصاص ، ثم على نفسه . ماتا معًا كما لو أنهما بطلا مسرحية لم تُكتب بعد. كانت أوروبا كلّها تتهامس : ها هو كليست، شاعر الموت والحب ، يكتب فصله الأخير بدمه.

صمتنا لحظة. كان المطر قد اشتدّ ، والريح تصفر كأنها تصفّق لمأساةٍ قديمة. قالت صديقتي وهي تحدق في الأفق الرمادي من خلف الزجاج:

تذكّرني قصته بما قيل عن أحزان فرتر لجوته ، حين انتحر الشباب الألماني تقليدًا لفرتر البائس . أحقًّا أثّرت الرواية بهذا الشكل؟

قلتُ:

أكثر مما تتخيلين. كانت رواية أحزان فرتر شرارةً أشعلت نيرانًا في أرواح المراهقين والشباب . كل من قرأها أحسّ أن الانتحار خلاص نبيل من قسوة العالم. وارتفعت معدلات الانتحار فعلًا حتى اضطرت السلطات إلى منع الرواية في بعض المدن. كان الناس يحرقون نسخها في الساحات العامة، ويصرخون: «أحرقوا فرتر وأحرقوا مؤلفه معه«!

قالت متعجبة:

يا له من تأثيرٍ مريع ! ألهذه الدرجة تكون الكلمة قاتلة ؟

قلتُ:

أجل. الكلمة كالسيف، تجرح أو تشفي. ولذلك كان كليست ضحية الكلمة التي كتبها، وضحية الكلمة التي قرأها في أدب من سبقوه . لقد أحبّ الحياة بقدر ما كرهها ، وكان في أعماقه شعورٌ متناقض بأن الفن خلاصٌ وهلاك في آنٍ واحد.

هزّت رأسها بأسى وقالت :

لكنك تبرّئ كليست وتدين غوته . أليس في ذلك تحيّز؟

قلتُ:

ربما ، لكنني لا أرى في الأمر تحيّزًا بقدر ما أراه دفاعًا عن روحٍ شابّة سحقها الزمن . إن كليست كان أقرب إلى الطفل الذي يحلم في عالمٍ من الفولاذ ، بينما كان غوته رجل دولةٍ يزن مشاعره بميزان الذهب . أحدهما كتب ليعيش، والآخر عاش ليكتب.

ضحكتْ قليلاً وقالت في خفةٍ تشوبها الجدية:

إذن، في رأيك، من هو القاتل الحقيقي لكليست؟

قلتُ:

غوته... أو كتبه على وجه التحديد. لقد قتله الإحباط الذي أورثته إياه رمزية فرتر ، والبرود الذي قوبلت به مسرحياته. حين لا يجد الكاتب من يفهمه ، يصبح موته شكلًا من أشكال التعبير الأخير.

قالت وهي تميل برأسها:

ولكن الكتب لا تطعن أحدًا بخنجر. لا بد أن هناك واقعة محددة ، زمنًا ، مكانًا ، رصاصة... كيف حدث ذلك فعلًا ؟

قلتُ:

في ظهيرة التاسع والعشرين من نوفمبر عام 1811، كان كليست وهنرييت في كوخ صغير على ضفة بحيرة وانسي. كتبا رسالتين إلى أصدقائهما، ثم جلسا في صمتٍ طويل. وضعت هنرييت رأسها على كتفه، وقالت له:

« كم هو جميل أن نموت معًا».

ابتسم، قبّل جبينها ، أطلق النار على صدرها ، ثم على قلبه. سقطا معًا، كأنهما عاشقان يتقاسمان آخر لحظة من الأبدية . حين وُجد الجثمانان ، كانت الابتسامة لا تزال مرسومة على وجهيهما.

ساد الصمت بيننا طويلاً. شعرت أن شيئًا من روح كليست قد مرّ في الغرفة. كانت صديقتي تمسح دمعة سالت على وجنتها دون أن تدري. قالت هامسة:

الآن أفهم لماذا أبكى ذلك المشهد الرجال والنساء على السواء... لأنه ليس مجرد تمثيل ، بل حياةٌ تُعاد على الخشبة.

قلتُ:

نعم. وربما لأننا جميعًا نحمل في داخلنا ماريا صغيرة تنتظر موتها أو خلاصها.

ابتسمت في مرارة وقالت :

ألهذا يُقال إن الأدب الألماني الرومانسي هو الأدب الذي جعل من الحب ديانة ومن الألم صلاة ؟

قلتُ:

تعبير جميل يا صديقتي . كليست ، مثل شوبنهاور بعده ، كان يرى في الحب انتحارًا بطيئًا للذات ، وفي الموت خلاصًا من هذا الانقسام بين الروح والجسد. لقد سبق التحليل النفسي قبل فرويد ، حين جعل الحوار بين ماريا والموت مرآةً لصراع الإنسان مع رغبة الفناء.

تساءلت وهي تحدق في الفراغ :

أترى لو عاش كليست في زمننا ، أكان سيكتب عن الحب والموت بنفس الطريقة ؟

قلتُ:

ربما كان سيكتب عن الاغتراب النفسي والعزلة الرقمية ، عن الحب الذي لا يكتمل عبر الشاشات. لكن جوهره سيبقى كما هو: البحث عن نقاءٍ مستحيل في عالمٍ ملوث.

نظرت إليّ بعينين غائرتين وقالت:

أشعر الآن أن ماريا لم تكن تتحدث مع الموت فحسب ، بل مع نفسها.

ابتسمت:

هذا ما أراد كليست أن نقوله بعد مائتي عام من موته . فالموت في أدبه ليس كائنًا خارجيًا ، بل ظلّ الإنسان نفسه ، حين يبلغ الحب قمته.

قامت من مقعدها ، أغلقت الكتاب الذي كان مفتوحًا أمامنا على صورةٍ باهتة لكليست ، وقالت بصوتٍ متهدّج :

غريب أن يموت الكاتب مرتين: مرةً برصاصه، ومرةً بقراءته.

قلتُ وأنا أتأمل قطرات المطر تنحدر على الزجاج:

لكنه أيضًا يُبعث مرتين: مرةً حين نقرأه ، ومرةً حين نفهم لماذا كتب ما كتب.

خرجت من القاعة ، وبقيت وحدي. خيّل إليّ أنني أسمع في المدى البعيد صوت ماريا وهي تهمس للموت:

»خذني الآن، فقد صرتُ جاهزة للحياة«.

+

يجمع هذا النص بين البعد **النفسي والفلسفي** في شخصية كليست، وعمق **الحوار الداخلي والخارجي** الذي يعكس تيار الوعي لدى السارد و الصديقة ، كما يربط بين الأحداث الفردية والسياق التاريخي للأدب

الألماني الرومانسي. ويبرز كيف يتقاطع **الحب والموت** في تجربة كليست ومسرحيته « متسولة القرية » بوصفهما وجهين لحقيقة إنسانية واحدة: الشوق إلى المطلق.

ضباب وانسي

ها نحن يا صديقتي ، في عصر يوم من أيام نوفمبر من عام 1911، قرب شواطئ بحيرة وانسي الألمانية، تلك البحيرة التي تشبه مرآةً فضيةً تحت أنفاس الخريف ، يلفّها الضباب حتى ليخيل إليك أن الطبيعة كلها قد لبست حجابًا من الحلم والغموض . الهواء بارد ، ساكن ، لا تسمعين فيه سوى نقرات حوافر الخيول على الطريق المبلل ، وصوت أوراق الشجر اليابسة تتمايل في الريح. كأن الزمان نفسه قد توقف ليصغي إلى ما سيحدث في هذا المساء الغريب.

قلتُ لصديقتي :

هذا يا عزيزتي منتجعٌ سياحيٌّ مشهور، لكنه يبدو كقريةٍ نائمةٍ الآن ، فالموسم قد انقضى ، والشتاء يقترب بخطاه البطيئة.

وقبل أن تردّ، أطلت من بين الضباب عربةٌ سوداء تجرّها جوادان قويان . توقفت عند حافة الطريق ، ونزل منها فتى وفتاة في ريعان الشباب . كان الشاب طويل القامة ، شاحب الوجه كمن أنهكه التفكير أو العشق ، أما الفتاة فكانت تتألق بنضارةٍ مدهشة ، شعرها الذهبي يتناثر على كتفيها كخيوط ضوءٍ متمردة على رمادية الجو.

قال الفتى وهو يمدّ يده لها بلطفٍ ظاهر:

هيا يا حبيبتي ، لقد وصلنا أخيرًا.

ضحكت الفتاة بخفةٍ طفولية وقالت:

كنت أتمنى لو أن الرحلة لا تنتهي أبدًا ، لو نظل في العربة إلى الأبد، أنا وأنت فقط ، بعيدين عن كل شيء.

ابتسم وقال بصوتٍ خافتٍ يحمل شيئًا من الحزن:

سنظل معًا يا هنريت... أنا وأنت فقط ، إلى الأبد . حتى لو تغيّر العالم من حولنا.

ثم أضاف بنبرةٍ مترددةٍ خفيفة:

لكن لن نأخذ سوى غرفتين في الفندق. دفء العربة أفضل من دفء الناس، أليس كذلك ؟

نظرت إليه باستغرابٍ، ثم مالت رأسها وقالت :

كما تريد ، يا هنريك ، لا يعنيني أين نبيت ، ما دمتَ بجانبي.

ناديا الحوذي ، فأشار له هنريك أن يحمل الحقائب إلى الفندق القريب المطلّ على البحيرة ، وقال له:

سنلحق بك بعد قليل.

سأل الحوذي وهو يلمّ لجام الخيل

وماذا أقول لصاحب الفندق عنكما؟

أجابه الشاب بنفاد صبرٍ غامض:

لا تقل شيئًا ، نحن قادمان بعد دقائق.

تحرك الحوذي بالعربة ، وبقي الشاب والفتاة واقفين في الضباب. اقترب منها هنريك ببطء ، ونظر في عينيها طويلاً قبل أن يمسح على وجهها بحنانٍ عميق. ثم طبع قبلةً طويلة على جبينها ، كأنما يودعها أو يودّع الحياة من خلالها.

همست صديقتي وقد احمرّ وجهها خجلاً:

لا حرج ، إنهما عروسان في شهر العسل ، ولا أحد يراهما سوانا في هذا الضباب.

ابتسمتُ وأنا أراقب المشهد:

ربما ، ولكن في عينيه شيء لا يشبه عيني عاشقٍ في شهر العسل .

وصلا إلى الفندق الصغير ، وكان في القاعة السفلية مدفأة تتوهج أمامها كراسي خشبية ، تفوح منها رائحة الخشب المحترق. جلست هنريت

قرب النار ، وقد التفّ معطفها الصوفي حول كتفيها ، بينما تقدم هنريك إلى طاولة الاستقبال حيث تنتظر سيدة متقدمة في السن بابتسامةٍ لطيفة.

قالت له وهي تمسح على دفتر السجل :

أهلاً بك يا سيدي، فندقنا المتواضع يشرفه أن يستضيف العروسين الكريمين.

انحنى قليلاً وقال:

أشكرك يا سيدتي.

تابعت السيدة بابتسامةٍ ودودة:

عروسك في غاية الجمال ، لا شك أنك أسعد الرجال الليلة.

أجابها بهدوءٍ كئيب:

نعم... أعتقد أنها أجمل فتاةٍ في ألمانيا كلها.

ثم أضافت السيدة:

أغلب الغرف خالية هذا الوقت من العام ، يمكنكما اختيار أي غرفة تشاءان ، لديّ غرفة جميلة تطل على البحيرة مباشرةً.

قاطَعها هنريك فجأة:

نريد غرفتين، من فضلك.

رفعت حاجبيها في دهشة:

غرفتين ؟ هل قلت غرفتين ؟ أأنتما لستما عروسين؟

قال بنبرةٍ قاطعةٍ لا تحتمل سؤالاً:

بلى ، ولكن نريد غرفتين متجاورتين.

ابتسمت السيدة محاولةً إخفاء حيرتها:

آه ، فهمت، ربما باب بين الغرفتين ؟ كثير من العرائس يطلبن ذلك في البداية. الخصوصية مطلوبة، طبعًا.

هزّ رأسه قائلاً:

لا ، بابٌ بينهما غير ضروري ، فقط لتطلّا على البحيرة.

كتبت السيدة شيئًا في السجل، ثم قالت مرحةً:

على البحيرة من جهة ، وعلى حديقة الفندق من الجهة الأخرى ، ما الاسم يا سيدي؟

أمسك القلم ، كتب بخطٍّ واضحٍ:

الآنسة هنريت فوجل ، والسيد هنريك فون كليست .

ظلت السيدة تنظر إلى الاسمين طويلاً ، كأنها تحاول أن تربطهما بذاكرتها.

كانت صديقتي تراقب الموقف بشغفٍ، وقالت لي هامسة:

هل لاحظتِ نظرة الدهشة في عيني صاحبة الفندق؟

قلت:

نعم ، لأن اسم فوجل يعود إلى أسرةٍ نبيلةٍ من برلين ، وفون كليست اسمٌ آخر ذو شهرةٍ أدبيةٍ في ألمانيا ، لكن السيدة لم تدرك بعدُ من هو.

ذهبت السيدة إلى زوجها في الغرفة الخلفية، تحكي له ما حدث بصوتٍ مضطرب:

تخيّل يا عزيزي ، عروسان شابان ، ولكنهما طلبا غرفتين لا غرفة واحدة ، واسم الفتاة من أسرة فوجل الثرية ، أما هو فيدّعي أنه فون كليست!

ابتسم صاحب الفندق وقال بلهجةٍ متهاونة:

يا عزيزتي ، لا شأن لنا بهذه الأمور ، ربما عروسان من طبقةٍ راقيةٍ أرادا الابتعاد عن العيون. لقد رأيتِ بنفسك كم بدت بينهما المودة.

ولكن الأمر غريب ، كيف تنزل ابنة أسرةٍ ثرية في فندقٍ متواضع مثل فندقنا ؟ ثم ذلك الاسم... فون كليست! سمعتُ به من قبل، أهو موسيقيٌّ؟ أم شاعر؟

هزّ زوجها رأسه:

أعتقد أنه كاتب أو شاعر ، نعم، لكنني لا أذكر أين قرأت عنه . على كل حال ، سنعرف كل شيء بعد يوم أو يومين . أين هما الآن؟

قالت الزوجة وهي تلقي نظرة نحو القاعة السفلية:

يحتسيان القهوة قرب المدفأة . العروس تنظر إلى اللهب وكأنها تفكر في شيء بعيد ، أما هو فيشعل غليونه ولا ينطق بكلمة.

في تلك اللحظة ، كان هنريك ينظر إلى النار بعينين تائهتين ، كأنه يرى فيها نهايةً قريبة . راودته فكرة الموت كظلٍّ مألوفٍ ، لا يرعبه بل يريحه . كانت هنريت إلى جواره ، تنظر إليه بعينين تملؤهما الطمأنينة والاستسلام . لم يكن بينهما حديث ، فقد صار الصمت نفسه لغةً أعمق من كل الكلمات.

قالت أخيرًا بصوتٍ خافت :

هنريك... أتظن أن الله يغفر لمن يختار طريقه بيده ؟

رفع رأسه إليها ، وعلى شفتيه ابتسامةٌ حزينة:

الله يفهم ما في القلب ، يا هنريت . نحن لم نهرب من الحياة عبثًا ، بل بحثًا عن صفاءٍ لم نجده فيها.

ولكن... أليس في الحياة ما يستحق أن نحيا لأجله ؟

لقد بحثتُ ، ولم أجد إلا الألم. الكتابة لم تعد تنقذني ، ولا المجد ، ولا الناس. كل شيء فقد طعمه. أما أنت، فأنت النور الأخير ، النعمة الأخيرة.

أطرقت برأسها ، وقالت بصدقٍ خاشع:

إذن، فلتكن النهاية معًا ، كما كانت البداية.

مدّ يده نحوها ، فتشابكت أصابعهما في صمتٍ عميق.

ذلك المساء، خيّم على الفندق سكونٌ ثقيل، والضباب ازداد كثافة حتى لم يعد يُرى من البحيرة إلا ومضات ضوءٍ باهتة. في الغرفتين المتجاورتين، ظلّ ضوء الشموع يترنح حتى انطفأ.

وفي صباح اليوم التالي ، عندما دخلت خادمة الفندق لتضع الفطور، وجدتهما راقدين جنبًا إلى جنب ، هادئين كأنهما نائمان . على الطاولة رسالة قصيرة ، بخطٍّ رشيقٍ واضح:

لقد اخترنا أن نغادر هذا العالم كما عشنا فيه... معًا، بحريةٍ وصفاء. لا حزن ، لا خوف.

هنريت فوجل – هنريك فون كليست.

قرأ صاحب الفندق الرسالة ، وأطرق رأسه طويلاً ، بينما كان الضباب يتلاشى عن وجه البحيرة ببطءٍ ، كأن الطبيعة نفسها تحني رأسها إجلالاً لروحَين لم يجدَا مكانهما في عالم الأحياء.

وهكذا، يا صديقتي ، لم يكن ذلك مجرد مساءٍ من أمسيات نوفمبر ، بل لحظة من لحظات التاريخ ، حين اختار شاعرٌ أن يكتب قصيدته الأخيرة بالرصاص لا بالحبر ، وأن يجعل من بحيرة وانسي شاهدةً على حبٍّ أبدى لا يفنى، وضبابٍ لا ينقشع إلا في الذاكرة.

زفاف على ضفاف الموت

كان الفندق يلمع كاللؤلؤة البيضاء على ضفاف بحيرة وانسي المبلّلة برذاذ الخريف ، والريح تهمس في أغصان الأشجار كأنها تستعدّ للعويل.

وقف الرجل عند مكتب الاستقبال مكان زوجته ، في فندق يحمل اسمًا غريبًا :**الزنبقة الورعة**.

علّقت هي ساخرة حين قرأت الاسم على الواجهة:

اسم عجيب! ما معنى الورعة؟ أهي زنبقة تتنسّك في محراب الجمال؟

ضحك الرجل ، وقال في هدوء مشوب بالرهبة:

كل الفنادق في هذا المرج الأخضر تختار أسماء رومانسية تُرضي السائحين... أما هذا الفندق ، فربما يخبّئ وراء عفّته شيئًا آخر.

كان المشهد ساكنًا على غير عادة المكان. البحيرة اليوم ترتعد خوفًا من سوط الريح الذي يوشك أن يهبّ ، وكأنها تعرف ما لا يعرفه الناس.

لو جئت هنا في عزّ الصيف لرأيت المكان عامرًا بالضحكات ، بالزوارق الأنيقة ، والضحكات المترامية فوق صفحة الماء... لكننا في نوفمبر ، والشمس غائبة ، والبرد يتسلل من بين الأبواب المغلقة كما يتسلل شكّ إلى قلب عاشق.

وهنا يهمس الراوي ، كأنما يحدّث نفسه :

ما الذي جاء بهما في هذا الشهر الكئيب ؟ وما الذي يدفع عاشقين إلى فندقٍ خاوٍ في موسم الموت ؟

سؤال لم يجد له صاحب الفندق جوابًا ، لكنه ظلّ يراقب الفتى والفتاة بعين الريبة الممزوجة بالفضول . تقدم الفتى نحوه بخطى واثقة ، وعلى شفتيه ابتسامة تخفي ما لا يُقال.

+

قال الفندقي بنبرة فيها حذر مهذب:

قالت شارلوت خادمة الطابق إنكما صرفتما العربة التي جئتما بها ؟

أجاب الفتى بمرح واندفاع:

نعم ، سنبقى طويلاً . ربما الخريف كله ، والشتاء أيضًا ، وربما أكثر !

تأمّله الفندقي قليلًا ، باحثًا عن خيطٍ يدلّه على حقيقة هذا الغريب. ثم قال:

هذا يسعدنا يا سيدي... يا سيد ؟

ابتسم الفتى وقال بثقةٍ مصطنعة:

فون كليست... السيد هنريك فون كليست . وهذه الآنسة فوجل .

أهلاً بكما ، السيد فون كليست والآنسة فوجل . الغرفتان جاهزتان. متى يكون الزواج ؟

بعد ثلاثة أيام بالتمام . ويحسن أن نستعدّ للحفل ، فسيغصّ الفندق بالمدعوين .

قالها وهو يضحك ضحكة قصيرة ، فيها نغمة غامضة تُثير القشعريرة أكثر مما تثير الفرح.

ويا له من زفاف !

ابتلع الفندقي دهشته ، وقال:

طبيعي يا سيدي ، فالآنسة فوجل من أعرق أسر ألمانيا .

ردّ كليست سريعًا:

تمامًا.

ثم ساد صمتٌ قصير.

كم تتوقع أن يحضر الحفل ؟

كثيرون... لا أستطيع أن أحدد العدد الآن ، ربما غدًا أو بعد غد.

لكن الفندقي لم يقنع. ظلّ الاسم يطنّ في أذنه : **فون كليست... فون كليست...**

لقد سمع هذا الاسم من قبل . ولكن أين ؟ ومتى ؟

قال محاولاً استدراجه:

كما تشاء يا سيدي فون كليست . هل نبدأ بتزيين القاعة الكبرى من الآن ؟

كلا، ليس بعد.

ثم غمغم الفندقي لنفسه :

هنريك فون كليست... الاسم مألوف جدًا .

حينها ارتفع صوت الفتى يغني في حماسة متهوّرة:

حطموا الكاسات يا رفاق

واهرقوا ما في الدنان

فقد جاءت حبيبتي

ألا يكفي الحب نبيذًا؟

صفّق الفندقي إعجابًا وقال بصدق:

يا له من شعر جميل ! لعلّه من قصائد أستاذنا العظيم جوته؟

امتقع وجه كليست ، وانقبض صوته :

ليس من شعر جوته ، بل من شعر من هو أعظم منه.

رفع الفندقي حاجبيه دهشة :

أعظم من جوته ؟ لا أحد يا سيدي ، جوته تاج الشعر الألماني .

اشتعلت نظرة الفتى ، وقال في حدةٍ طفولية:

جوته ؟ لا يصلح كناسا في حديقة عبقرية هذا الشاعر الذي أنشد هذه الأبيات!

ارتبك الفندقي ، وتراجع خطوة :

لكنك ألماني ، كيف تقول ذلك ؟

ردّ كليست بلهجةٍ فيها نبوءة سوداء:

لقد ضرب عليكم جوته من سحره الفاسد ، لكنكم ستفيقون... قريبًا جدًا. ربما بعد حفل زفافي .

ثم التفت إلى الفتاة التي كانت صامتة طوال الوقت ، شاحبة كتمثالٍ من رخام البحيرة ، وقال لها بمرحٍ مصطنع :

هيا يا عروسي الجميلة ، السعادة تنتظرنا في الطابق الثالث !

صحّح الفندقي بسرعة:

الرابع يا سيدي.

ضحك كليست ، وقال وهو يخطو نحو الدرج:

الرابع إذًا ، يا صديقي المولع بجوته . ستعرف كل شيء في الوقت المناسب... يوم الزفاف .

ظلّ الفندقي واقفًا مكانه ، يسمع وقع خطواتهما يصعد السلالم الحجرية الباردة ، بينما يدور في رأسه الاسم كدوامة:

فون كليست... هنريك فون كليست ...

ثم هتف في نفسه:

يا إلهي! أليس هو الشاعر الذي...؟ لا، لا يمكن... لقد مات منذ أعوام!

+

في الغرفة، جلس كليست إلى جوار النافذة ، ينظر إلى البحيرة التي ترتجف في مهبّ الريح.

كان الليل قد بدأ يزحف على الأفق ، ومعه امتدت في داخله عتمة أخرى ، عتمة لا يبدّدها ضوء.

كم هي ساكنة هذه البحيرة... كأنها قبر ! كم تشبهني !

سمع صوتها صديقتي   صوته الداخلي ، ذلك الذي كان يطارده منذ زمن الحرب ، زمن الفقد ، زمن السجن النفسي الذي لم ينجُ منه يومًا.

أحقًا ستتزوجها ؟ أم أنك تمضي فقط إلى مصيرك ؟

أجابه صوته الآخر ، الهادئ ، المتهكم :

الزواج؟ إنها كلمة خادعة. إننا لا نتزوج لنحيا ، بل لنموت معًا... في لحظة من النقاء الكامل .

ثم التفت نحو الفتاة التي كانت تضع زهور الزنبق الأبيض في إناء بلوري صغير.

قال في رقةٍ مضطربة:

تعلمين يا فوجل... هذا المكان يناسبنا ، أليس كذلك ؟ هادئ، بعيد عن الضجيج ، لا أحد يسأل من نحن ، ولا أحد يعرف إلى أين نمضي .

ابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت :

كل شيء في هذا الفندق يذكرني بالموت . حتى اسمه ...

الزنبقة الورعة ؟

نعم. الورع الحقيقي هو الذي لا يخشى النهاية .

سكت طويلًا. ثم قال وهو ينظر إلى البحيرة كمن يرى مصيره في صفحة الماء:

لقد سئمت العيش بين عالمٍ لا يفهم الجمال إلا إذا كان مطليًا بالذهب . أردتُ مرة واحدة أن أعيش حبًا نقيًا... بلا أقنعة ، بلا جمهور ، بلا خوف .

همست:

وهل يمكن للحب أن ينجو من العالم ؟

لا ، لكنه يستطيع أن يعلو عليه بالموت .

ساد صمت طويل. ثم عاد صوت الريح يعصف بالنافذة ، فقام كليست يغلقها بعنفٍ وقال كمن يخاطب ظله:

سأرحل عن هذا العالم بعد أن أترك له أجمل قصائدي... قصيدة مكتوبة بالرصاص ، لا بالحبر .

+

اليوم الثالث

كان الفندق في صمتٍ مريب . لم تُعلّق الزينات ، ولم يأتِ أحد من المدعوين المزعومين .

سأل الفندقي نفسه مرارًا:

أين الحفل ؟ أين الضيوف ؟ ولماذا أغلقا الباب منذ الأمس ؟

ترددت أصوات غامضة في الممر ، ثم سكون .اقترب من باب الغرفة رقم 47 ـــ الطابق الرابع ، حيث السعادة التي تحدّث عنها كليست.

طرق الباب برفق:

سيد فون كليست ؟ آنسة فوجل ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟

لم يجبه أحد .

مدّ يده بخوف، فتح الباب ببطء... فرأى ما لم يُرِد أن يراه.

كانت النافذة مفتوحة على اتساعها ، والريح تلطخ الستائر البيضاء بدمٍ قانٍ.

على الأرض ، بجانب المسدس ، استقرت زهرة زنبقٍ بيضاء ، مضرّجة بلونٍ لا يليق بها.

وقف الفندقي مذهولًا ، وصدى الأغنية القديمة يتردّد في أذنه:

حطموا الكاسات يا رفاق

واهرقوا ما في الدنان

فقد جاءت حبيبتي

ألا يكفي الحب نبيذًا ؟

همس كمن يخاطب الفراغ:

يا له من زفافٍ دامٍ! لقد أوفى بوعده... السعادة في الطابق الرابع!

وفي الخارج ، كانت البحيرة قد هدأت أخيرًا.

ربما لأنها احتضنت عاشقين وجدا فيها السلام الذي لم يجداه على اليابسة .

وفي أعماقها ، كانت الزنبقة الورعة تفتح أوراقها البيضاء... في صمتٍ يشبه الصلاة.

همس الزنبقة الورعة

كان الليل، في تلك القرية السياحية الصغيرة «ستيمينج» ، يهبط برفق يشبه اللمسات الأخيرة لرسام عجوز فوق لوحته ، بينما توهج سطح بحيرة وانسي كمرآة تلتقط أنفاس السماء . هناك ، عند حافة الغابة ، ينتصب فندق «الزنبقة الورعة» ؛ بناء خشبي بسيط ، رقيق ، يحمل اسماً عاطفياً لا ينسجم إطلاقاً مع القصة التي على وشك أن تُكتب بين جدرانه.

ومن هنا يبدأ اللغز:

ماذا يدفع شابة فاتنة ، من بيت ذي حسب ونسب ، وزوجة رجل نافذ في عصره ثراءً وسياسةً وتجارة... إلى الفرار مع شاعرٍ مجهول ، عاطل ، فاشل ، لا حظ له من المجد ، ولا من الرجولة الكلاسيكية التي يتغنى بها المجتمع ؟

مع هنريك فون كليست تحديداً...؟

حتى الأمس القريب ، لم يظهر أي تفسير سوى الحب.

غير أن الحب، كما تقول آخر كلمات هنريت فوجل ، »لم يكن له دخل فيما حدث

فكيف ؟ وكيف لا...؟

ألم يفرا معاً إلى القرية ، وينزلا في فندقٍ رومانسي اسمه يوحي بالبراءة والتبتل؟

وحتى لحظة صعودهما إلى الغرفتين نعم غرفتين، لا غرفة واحدة بدا كل شيء يشير إلى علاقة عاشقة متقدة. لكنهما... حجزا غرفتين !

تساؤل غريب ، أليس كذلك ؟

فالعشاق الحقيقيون يعرفون طريقهم ، ولا يحتاجون إلى حياءٍ متكلف. نظراتهم تفضح عيونهم .

ومع ذلك، كانا طوال الطريق متخاصرين، متشابكي الأذرع، يتوثبان مرحاً كالطفلين ، هي تقفز لتقبّل وجنته بعبث طفولي ، وهو يطوق خصرها بحنان متفجر.

فإذا لم يكن حباً... فما هو إذن ؟

وما معنى رسالتها الأخيرة التي ختمتها بجملة :

ليس للحب دخل في هذا ؟

+

نترك التفسير، كما قال صاحبي ، حتى تصل الأحداث إلى نهايتها المرسومة.

ما نحن إلا مراقبون، نتتبع خطواتهما كمن يقتفي أثر طيفٍ يمرّ من غير أن يدرك أن هناك عيوناً تراه.

كان آخر ما رأيناه منهما هو صعودهما إلى الطابق العلوي ، عبر درج خشبي يصدر طقطقة خافتة، إلى غرفة تحمل الرقم (7) وأخرى تحمل (8).

الفندق صغير ، يعيدك إلى زمن آخر ؛ زمن كانت فيه الروائح الخشبية أكثر صدقاً من العطور ، وكانت المفارش المطرزة بخيوط الأمهات أكثر دفئاً من أي حرير.

وما إن أغلقت الأبواب الخفيفة خلفهما ، حتى دقّت خادمة الطابق ، « شارلوت »، طرقاً خفيفاً ، يحمل الأدب الألماني التقليدي الذي لا يعرف الفظاظة.

فتحت هنريت الباب.

كانت في ثوب سفر بسيط ، شعرها منسدل بطريقة غير مرتبة، لكنه جمال لا يحتاج إلى ترتيب كي يُرى.

قالت شارلوت بنبرة ناعمة :

آسفة يا سيدتي... أرسلني صاحب الفندق لأسأل عما تريدانه للعشاء.

سمع كليست السؤال ، وخرج من غرفته وهو يبتسم ابتسامة فيها من الجنون بقدر ما فيها من العبقرية.

قال لها:

نريد... شموعاً. كثيرة. وكأن الليلة عرس من دون مدعوين.

رفعت شارلوت حاجبيها بمرح طفولي :

شموع؟ لحفل الزفاف بالطبع ?

ضحك كليست ونظر إلى هنريت نظرة لا يُعرَف إن كانت حناناً أم شيئاً آخر أعمق :

لا... للعمل.

وسيشغلني العمل عن العالم ، لكنه لن يشغلني عن عروسي... فاطمئني.

أنتِ مثلها... تُحبين الحب,

ضحكت شارلوت مرة أخرى :

والمحبون شموع إذن ؟ وبكمية ?

ردّ عليها وهو يتقدم خطوة:

سأكتب الليلة مسرحية.

ربما لا أصل لنهايتها ، لكن المهم أن أبدأ أولى الصفحات. والصفحات التي سأكتبها لن ينساها الخلود يا شارلوت.

ابتسمت الخادمة كمن يقول كلاماً مجاملاً لا يدرك عمقه:

لا شك في ذلك يا سيدي.

وغادرت.

عادت إلى مكتب الاستقبال وهي تهز رأسها.

قال لها صاحب الفندق ، وهو رجل ممتلئ الجسد ، شديد الحساسية تجاه غرور الشعراء :

شموع ؟ ألا حد لغرور هذا الشاب ؟ أيظن نفسه شاعراً حقاً؟

ثم ضحك ساخراً ، وأضاف :

بل يظن نفسه أعظم من جوته ! مجنون... مجنون فعلاً.

قالت زوجته «فلورا»، وهي امرأة رقيقة تميل دائماً إلى تبرير تصرفات الآخرين:

لكنه رقيق يا ألبرت... وخطيبته أيضاً. تعرف ضعفي أمام أي عروسين يحتفلان بزفافهما في فندقنا المتواضع.

أجابها زوجها ، وقد بدأ القلق يعصر صدره:

يزعمان أن المدعوين كثيرون ، ومع ذلك لا يعطيني العدد!

هنريت... ابنة البارون فوجل ، تفر مع شاعر فقير مجهول؟

تقولين زفاف ؟ لو كان زفافاً لأتيا بجيش من الخدم والحشم والعربات...

لكن... جاءا في عربة مستأجرة! شيء لا يطمئن أبداً .

+

هن ا، تبدأ حكاية الوعي الداخلي ...ولا أحد يسمع ما يدور في داخل كل منهما.

لكننا نحن المراقبين نحاول الإصغاء.

داخل غرفة هنريت:

كانت تجلس على حافة السرير، تتأمل يديها، كأنها تبحث عن شيء ضاع بين أصابعها.

يا لهنريك... يا هنريك... أنت لا تعلم أني أراك طفلاً يحاول اختراع قدره بيدين مرتجفتين .

هربتُ من كل شيء... من اسمي... من شرف العائلة... من زوجي... من العالم الذي أرادني مثالية .هربتُ لأني... أخاف . ليس منك... بل من الحياة نفسها. ولذلك قلتُ: ليس للحب دخل في هذا. الحب... رفاهية لا نملكها .

داخل غرفة فون كليست:

كان يسير ذهاباً وإياباً ، كمن يقيس حجم جرحه بالخطوات.

يا هنريت... لم أطلب حبك . طلبتُ شيئاً أبعد من الحب... شيئاً يشبه الخلاص.

أريد أن أكتب الليلة... ما لم يفهمه أحد في حياتي . أريد أن أترك جملة واحدة... تسقط في الزمن كالسيف.
أريد أن أمسك بحقي في النهاية... حق الفنان في اختيار مصيره .

ثم توقف أمام النافذة، وأحسّ بأن الظلام على البحيرة يشبه صدره. وربما... كان القرار قد وُلد بالفعل.

+

في الصالة، كانت الزوجة فلورا تقول لزوجها:

إنهما لطيفان... وربما فعلاً سيحتفلان بزواجهما هنا .ألا ترى أنه ينظر إليها كمن وجد في العالم ملاكاً ضائعاً؟

ردّ ألبرت وهو يشعل غليونه:

لا أعرف ، يا فلورا... نظراتهما لا تشبه نظرات العشاق. تشبه وداعاً... وداعاً يعرف الطرفان أنه الأخير.

ارتجفت فلورا . لكنها لم تعقب.

+

الليل يُثقل الفندق.

الشموع تشتعل في غرفتين منفصلتين ، لكن اللهب يتشابه. والحبر يسيل على الورق، لكن الكلمات المختلفة يبدو أنها تنتهي إلى مصير واحد.

كان صوت كليست يصل متقطعاً عبر الجدار:

هنريت... هل تسمعين؟

بدأتُ الصفحة الأولى.

هل تظنين أن التاريخ سيقرأنا؟

ورغم الجدار، وصل صوتها هادئاً:

التاريخ لا يقرأ أحداً يا هنريك... لكنه يلتقط الأرواح التي تسقط بحرية... ربما سنكون منهم.

ثم صمت.

+

في الفجر، حين بدأ ضوء باهت يتسلل ، خرجا من الفندق معاً.

كانا يمسكان الأيدي ، لكن لا أثر للعاطفة .مجرد يقين.

قالت له:

لقد كُتب كل شيء.

قال هو:

نعم... ما عاد هناك سبب للانتظار.

سار الزوجان خلفهما بنظرات قلقة.

وفي نهاية الطريق، قرب ضفة البحيرة، وقفا طويلاً، كأنهما يستمعان إلى صوت لا يسمعه أحد سواهما.

كانت الريح باردة.

وكانت نهايتهما... خارج متناول الفهم.

+

وعندما عادت الخادمة شارلوت إلى غرفتهما لاحقاً، وجدت على الطاولة ورقة كتب عليها بخط مرتجف:

ليس للحب دخل في هذا... بل للحرية.

وللموت الذي يشبه الحقيقة بأكثر مما يشبهه الحب«.

+

وتبقى النهاية مفتوحة...

هل كان ما جمعهما حباً مكسوراً؟

أم بحثاً عن خلاص مشترك؟

أم اتفاقاً فلسفياً بين روحين انتهت صلاحية العيش في هذا العالم؟ لم نعرف... ولن نعرف.

كل ما نعرفه أن «الزنبقة الورعة» لا تزال حتى اليوم تحمل في جدرانها صدى مشيهما الأخير.

وأن بحيرة وانسي ، كلما هبّ الليل ، تلمع كأنها تفتح صفحة جديدة لم تُكتب بعد.

ربما... تنتظر كاتباً آخر، وامرأة أخرى...

أو لعلها تنتظرنا نحن.

ولا ينطفئ النور في الغرفتين

لم يكن الفجر قد بدأ بعد في مدّ خيوطه الذاهبة نحو البياض ، حين لاح جرس القاعة السفلى يقرع قرعًا يخلع السكون من مكانه .

جرسٌ في هذه الساعة ؟

والليل يوشك أن يسلّم فمه للضوء ؟

أي عجبٍ في هذا ؟

عروسان... ومن قال إن العاشقين يعترفون بالليل أو يوقّرون النوم؟

فتح صاحب الفندق نصف عينيه ، ثم التفت إلى زوجته المستلقية قربه وقال بضجرٍ له رائحة الإعياء:

» ألا ينام هذا الفتى ؟«

ضحكت فلورا بصوتٍ خافتٍ كأنها تحاول ألّا تزعج حلمًا صغيرًا في الغرفة، وقالت :

عروسان يا عزيزي... أ نسيت أيّام زفافنا ؟«

انقبض وجه الزوج ، وعاد صوت الجرس يرنّ كأنه يعلّق كلامها من أذنيه.

» لقد ضقتُ بهذا الضيف الذي يدقّ الجرس في مثل هذه الساعة... صعدي إليهما يا فلورا ، حتى لا أغلظ له القول «.

صعدت الزوجة بخفّةٍ لها عمرٌ طويل، ثم هبطت بعد دقائق وهي لا تدري كيف تصوغ ما سمعته في لغةٍ يفهمها الرجل.

» شيءٌ عجبٌ،» تمتمت ، «قهوة؟ قهوة في هذه الساعة ؟«

رفع حاجبيه ، فازدادت دهشتها عمقًا.

» والعروس ؟«

» كانت في الغرفة الثانية... أظنّها نائمة«.

» وهو؟ ماذا كان يفعل في هذا الوقت؟«

تنفست فلورا كأنها تشمّ رائحة الورق الذي كان الفتى ينحني عليه:

» يكتب... أمامه كومة كبيرة من الأوراق. أراد أن يقرأ لي بعض ما كتب من أشعار، ولكني اعتذرتُ... برِقّة «.

» برِقّة؟ كان يجب أن تغلظي له القول... قهوة«!

لكنّ الصباح ، مثل كل صباحٍ يخون صبر البشر ، حمل معه طلبًا جديدًا للقهوة.

وهنا انفجر الفندقي ساخطًا :

متى إذن يطلبان الطعام ؟ أيُّ عرس هذا ؟ فلورا... أخشى أن يكون هذا الشاعر التافه مفلسًا «!

ابتسمتْ الزوجة سعادةً بالشابين العاشقين ، وقالت بنبرةٍ يكسوها أثرُ قلبها الذي يعرف العشق ويحفظه :

اطمئن. لقد أعطاني وأعطى شارلوت مبلغًا لم أحصل على نصفه من الأمير برنادوت نفسه«.

» ومن أين له بالمال ؟«

سؤال قاسٍ، لكنّ شكوك الفنادق لا تعرف المجاملة.

»أ نسيتَ أن خطيبته من أسرة فوجل؟ الثراء يمشي في دمهم يا عزيزي«.

+

في التاسعة تمامًا ، نزلا إلى قاعة الفندق السفلى . متخاصران ، لكنّ الخصام كان أجمل من وفاق البشر جميعًا ؛ لأن الشابة كانت تقفز مثل طفلةٍ مدلّلة ، تقبّل وجنة الفتى ذي الوجه الرقيق ، وجهٍ يشبه وجه فتاةٍ أكثر ممّا يشبه رجلاً يحمل قسوة الحياة.

جلسا للإفطار.

وكان الشاعر ، كعادته ، لا يعرف السكون ، فترك عروسه واتجه نحو طاولة الاستقبال.

قال الفندقي بفتورٍ يضمر القلق :

» أهلاً بك يا أستاذ كليست... أتروق لك الخدمة في فندقنا البسيط؟«

ابتسم الفتى ابتسامةً تنقصها طمأنينة، وقال :

» لا أحد ينسى رقّة زوجتك ، ولا ظرف شارلوت ، ولا حدبك علينا... رغم عيبك الوحيد «.

اتّسعت عينا الرجل.

» عيبي؟ أعتذر إن بدر مني ما يزعجك... وما هو عيبي ذلك ؟«

ضحك الشاعر ضحكة خفيفة تتأرجح بين السخرية والجدّ :

إعجابك بجوته... أنت لا تعرف الرجل كما أعرفه«.

تحرّك الفندقي في مكانه محاولًا الهرب من جدلٍ يعلم أنه بلا فائدة.

» لكلٍّ وجهة نظره يا أستاذ كليست«.
» صحيح... وعلى كلّ حال سيعرف الناس الحقيقة بعد... بعد حفل الزفاف «.
ارتبك الرجل :
» هل سيشرفنا الكونت جوته بالحضور؟«
» ليس هذا ما أعني «...
ثم خفّت نبرة الشاعر كأنه يعود إلى واقعه :
» أريد رجلاً يحمل رسالتين إلى برلين «.
» سيذهب إليهما فورًا، يا سيدي «.
» أشكرك... وبالمناسبة ، خطيبتي تريد أن تقضي اليوم كله على شاطئ البحيرة «.
أومأ الفندقي :
» سيكون كل شيء جاهزًا... المقاعد والمفارش «...
هنا اعتدل الشاعر بنبرة قاطعة:
» لا أعني الشاطئ المقابل للفندق... بل الشاطئ الآخر «.
تغيّرت ملامح الفندقي .
الشاطئ الثاني ؟ يا أستاذ كليست ، نحن في نوفمبر. الرياح قد تصفعكما ، والمطر ينقضّ بلا استئذان. إن كنتما على الشاطئ المقابل فستعودان إلى الفندق خلال لحظات «.
ابتسم الشاب ، ابتسامة لطيفة لكنها لا تخلو من شيء يشبه الإصرار الغامض :
» نصيحةٌ في مكانها، لكن... من يستطيع رفض طلبٍ للعروس؟«
ضحك الفندقي بامتنانٍ مضطر :
» سمعًا وطاعةً للعروس الجميلة... أنت محظوظ يا أستاذ كليست«.
» أرجو أن تقدّم لنا الغداء هناك«.
» بكل سرور... فلورا! الأستاذ كليست يريد الغداء على الضفة المقابلة «!
أطلت فلورا بعينيها الوديعتين وقالت بحماس :
» سأقوم أنا بخدمتكما«.
انحنى الشاعر امتنانًا :
» أشكرك يا فلورا... من كل قلبي«.

» سأعد كل شيء وآتيكما بنفسي«.
» كم أنت لطيفة يا سيدتي... هذا سيسعد حمامتي الصغيرة«.
ثم التفت إلى هنريت ، نبرته تتخثر بالحب :
» أليس كذلك يا طفلتي المحبوبة؟«
من مقعدها ، قالت العروس :
يسعدني هذا... لكن سعادتي الحقيقية حين تكون يدي في يدك ، وعيني في عينك «.
تنهدت فلورا همسًا :
ما أسعدكما«...
ابتسم الشاعر ابتسامةً فيها ظلّ غموض :
» هذا ما أقوله دائمًا... وما سيقوله الناس في حفل الزفاف «.
ثم قال للفندقي :
لا تنسَ... الرسالتين والغداء على ضفة البحيرة الثانية«.

+

لماذا يكتب الإنسان في فجر زفافه ؟
لماذا لا ينام ؟
لأن النوم ليس لأمثاله ، النوم للذين يعرفون طريقًا واحدًا للحياة... وأنا؟ أنا طريقي يدور حول ذاته كدائرةٍ أغلقها على قلبي.
هنريت... طفلتي ، ملاكي ، حياتي الناقصة التي اكتملت مرةً واحدة ، وربما... لن تكتمل بعدها.
هل أخبرها ؟ هل أقول لها إن الليل ينهشني ؟
إن القصائد التي كتبتها ليست قصائد... بل رسائل وداع ؟
برلين...
ستعرف كلّ شيء عندما تصل الرسالتان.
سيعرفون ما ظللت أهرب منه ، ويعرفون لماذا لم أستطع أن أحيا مثلهم...
لماذا كان الفجر دائمًا أكبر من قدرتي على تحمّله.

+

حين خرج الشاب والفتاة نحو البحيرة ، كانت السماء تتغيّر ببطء. الغيوم تتحرك كجنودٍ قديمين يعرفون ساعة الهجوم . والريح تجرّ في أطرافها رائحة بردٍ لا يؤذي، لكنه يحذّر.

كانت هنريت تتعلق بيده ، تتأمله كما لو أن العالم كله داخل عينيه. أما هو ، فكان ينظر إلى الماء... إلى مساحاتٍ بعيدة لا يراها سواه.
لماذا طلبتَ الشاطئ الآخر يا صغيري ؟» سألت هي.
ابتسم:
» لأن الشاطئ القريب يعيدنا بسرعة... وأنا لا أريد العودة مبكرًا«.
» إلى أين سنعود ؟ «
سؤال بريء، لكنه طعن جوف قلبه.
لم يجب.
أدار وجهه إلى البحيرة، وأحس كأن الماء يجيبها عنه.

+

في الفندق، كانت فلورا تعدّ الطعام ، لكن شيئًا في قلبها يخفق بخوفٍ صغير.
قالت لزوجها:
» لو استمعا لنصيحتك«...
» العشّاق لا يستمعون لغير قلوبهم«.
تنهدت ، وقالت:
» لكن قلب هذا الشاعر... ليس عاديًا«.

+

جلسا على مفارش وضعتها فلورا بعناية .
والبحيرة أمامهما تُشبه مرآةً معتمة، لا تعكس الوجوه، بل تخفيها.
قالت هنريت وهي تضع رأسها على كتف كليست:
» هل كنتَ تكتب شعراً الليلة الماضية ؟«
» نعم«.
» هل تكتب عني؟«
» عنّا«.
ضحكت:
» وعن ماذا أيضًا؟«
» عن المستقبل«...
ثم تردّد ، كأنه يداري كلمةً جريحة ،
» وعن... النهاية«.
رفعت رأسها بقلق:

» أي نهاية؟«
تلعثم قلبه ، لكن صوته بدا ثابتًا :
» النهايات التي نختارها نحن... لا التي تُفرض علينا«.
+

هل أملك حقّ اختيار نهايةٍ لامرأةٍ تحبّني؟
ولكن... ما الحبّ؟
إنه شجاعتها. شجاعتها أن تمشي معي حتى لو لم يعد في الطريق رجوع.
أم أنّي جبان؟
ربما... ربما أنا الهارب الأكبر
لكن ، ماذا تفعل هنريت بدوني ؟
وماذا أفعل أنا بالعالم ؟
العالم الذي خذلني ، وجرّح كلماتي ، وحاصرني في ظلّ جوته الكبير؟
الرسالتان...
لا عودة بعدهما.

+

في اللحظة التي جاء فيها الغداء ، كانت السماء قد أطبقت.
فلورا هبطت من القارب وهي تحاول إخفاء خوفها:
» يا طفلتي... البرد قاسٍ هنا. هل لا تزالان ترغبان في البقاء ؟«
قالت هنريت بفرح طفلة :
" نعم يا فلورا! نحن بخير«.
نظر الشاعر إلى خادمة الفندق بعينين شهدتا أكثر مما ينبغي.
» أشكرك يا فلورا... أرجو أن تتذكّرينا بخير«.
» لماذا تقولها هكذا؟» سألت بقلق.
ابتسم... ابتسامةً لا رائحة لها إلا الوداع.
+

جلسا قرب الماء.
تحدّثا .ضحكا . سكتا.
كان الصمت أطول من الكلام ، وأكثر صدقًا.

وكانت عين هنريت تنظر إليه بإيمانٍ كامل... الإيمان الذي لا يُعطى مرتين.
قالت:
» أشعر وكأننا نعيش آخر يومٍ من طفولتنا... وغدًا نصبح كبارًا«.
نظر إليها طويلًا ، ثم قال بصوتٍ خافت:
» نعم... آخر يوم«.

+

ما الذي حدث بعدها؟
لا أحد يعرف على وجه اليقين.
الرياح تقول شيئًا .البحيرة تقول شيئًا آخر.
والتاريخ يهمس... ولا يصرّح.
يقال إنهما اقتربا من حافة الماء.
ويقال إن الشاعر أمسك يد العروس بقوةٍ لم يعرفها من قبل.
ويقال إنهما تبادلا نظرةً طويلة... نظرةً لا تحتاج إلى كلمات.
ثم — صمت.
صمتٌ صنعته البحيرة ، أو صنعاه هما ، أو صنعه القدر الذي قرر أن يترك النور مشتعلاً في الغرفتين... إلى الأبد.

+

انتظر الفندقي وزوجته طويلًا.
ومع حلول المساء، بدأ القلق يأكل أطراف قلبيهما.
قالت فلورا :
» أشعر أن شيئًا حدث«...
وأجاب زوجها بصوتٍ خافت :
"الغرفتان مضاءتان... ولا أحد يعود«.
ومضى الليل.
ولم يرجع العروسان.
وبقي النور... بقي كأنه شاهدٌ على قصةٍ لم تكتمل ، أو اكتملت بطريقةٍ لا يفهمها سوى العاشقين.

+

هل عاد القارب خاليًا ؟

هل اختفت آثارهما عند الضفة ؟
هل كان اختيارًا... أم مصادفةً قاسية ؟
التاريخ يكتب نصف الحقيقة ،
والبحيرة تحتفظ بالنصف الآخر،
أما الحبّ... فلا يحتفظ بشيء ، بل يترك خلفه ضوءًا في غرفتين لا ينطفئ.

حين همسَتِ الغابةُ باسمَيهما

خرجَا متخاصمَين نحو البحيرة ، كأن صدى خطاهما على الممر الترابي يحمل بقايا نقاشٍ لم يكتمل . كان الأفق يتّشح بذهب المغيب ، والبحيرة راكدة كمرآةٍ تنتظر وجهاً جديداً تنعكس عليه الحكاية . وفي سخطٍ متوترٍ، قال الفندقي لزوجته ، وهو يضرب الهواء بكفه كما لو أنه يضرب فكرةً لا شخصاً:

ما هذا العبث الصبياني؟ يا حمامتي الصغيرة... يا طفلتي الجميلة... ما هذه السخافات ؟ إنني لم أرَ في حياتي كلها عاشقين بمثل هذا السخف ! ويقارن نفسه بأستاذ الأساتذة... جوته العظيم ! .

كان صوته يجلجل ، لكن خلف صخبه رعشة غيرةٍ عجوزة ، كتلك التي تنتاب من يرى في الآخرين شجاعة لم يمتلكها يوماً. أما زوجته ، فراو فلورا، فابتسمت ابتسامةً هادئة ، كمن يعرف أكثر مما يريد أن يقول :

أنت يا عزيزي لن تفهم أبداً مثل هذه العاطفة الجميلة التي تحرك وجدان هذين الصغيرين... لو طلبا أن أحمل لهما الطعام إلى القمر لفعلتُ ذلك راضية.

هزّ رأسه بامتعاضٍ ساخر ، لكنه لم يُجب . كان يدرك في داخله أن زوجته ترى في العاشقين انعكاساً لأيامٍ مضت ، أيامٍ كانت فيها هي ، وربما هو أيضاً ، أكثر قرباً من الجنون الجميل الذي يسمونه حباً.

*

بلغ الفتى والفتاة الضفة الثانية في زورقٍ صغير ، كان الماء ينزلق على جانبيه كأنما يمهد لهما الطريق . يدها في يده ، تتشابك أصابعهما كجذور شجرتين أراد القدر لهما أن تنموا معاً. كانت قبلاتهما السريعة أشبه بطيف برقٍ خفيف، يلمع ثم يختفي ، لكنه يترك أثره على القلب أطول من الليل.

وبعد الدغل الكثيف الذي يلي الشاطئ، امتدت الغابة السوداء الشهيرة... غابةٌ تُروى عنها الأساطير ، وتُقال فيها الحكايات التي تنتهي دائماً بنقطة استفهام . كان الهواء هناك أكثر ثقلاً ، كأنه محمّلٌ بأرواح الذين مرّوا ، والذين تمنّوا أن يمروا ، والذين لم يخرجوا مرةً أخرى.

وقفا أمام حفرةٍ نشأت من سقوط شجرة عظيمة الجذور، ربما بفعل عاصفةٍ قديمة ، وربما بفعل صراعٍ طويل بين الأرض والسماء.

سأل الفتى صاحبته وهو يمعن النظر في الحفرة، كأنما يرى فيها أكثر من مجرد تجويف :

ما رأيكِ في هذه الحفرة ؟

نظرت هنريت حولها ، ثم إليه ، وكأنها تحاول قراءة ما يدور خلف عينيه قبل أن تجيب :

أتراها مناسبة يا حبيبي ؟

ردّ عليها بصوتٍ منخفض ، لكن فيه شيء من اليقين الغريب :

ما رأيكِ أنت؟

ابتسمت ابتسامةً صغيرة ، لكنها كانت مُثقلة بأسرارٍ لم تقلها بعد :

المهم أن تضمّنا معاً...

ارتجف صدره لحظةً ، ثم قال بجذلٍ مباغت :

رائع... إلى الشاطئ إذن بعد أن عثرنا على بغيتنا.

لكن وجهه ، للحظةٍ قصيرة اختفت سريعاً ، لم يكن يشبه وجهاً وجد كنزاً... بل وجهاً وجد قراراً.

*

عادا إلى الشاطئ، وكانت زوجة الفندقي فراو فلورا قد أعدّت لهما جلسةً هنيّة على الحشائش الخضراء . نظمت الطعام بعناية أمٍ تُعدّ مائدةً لابنيها في ليلة ميلادٍ هادئة . جاءت لهما بالطعام اللذيذ ، وأرادت أن تتركهما وحدهما ، وتذهب تنتظر في الزورق.

لكن الفتى ناداها :

لماذا لا تشاركينا الغداء يا فلورا؟ إنكِ كأختٍ لنا تماماً... وتفهمين أسرار ما بيننا.

ضحكت ضحكة قصيرة فيها عبق الحياة التي تعلّمت الكثير:

أفهم ما بقلبيكما أيّها الطفلان العزيزان ، أما الأسرار ؟ فلا أزعم أنني أعرفها.

نظر إليها الفتى نظرةً طويلة ، ثم قال بنبرةٍ فيها دقةٌ لا يفهمها إلا من تشرف على فعلٍ لا عودة منه:

ستعرفين ليلة الزفاف... أنتِ والناس جميعاً.

أحست هنريت برعشةٍ تسري في يدها الممسكة بيده ، لكنها لم تقل شيئاً.

قالت فلورا وهي تتراجع نحو الزورق:

سأجلس هناك حتى أعود بالصحاف... وأترك لكما قناني النبيذ.

نهضت خطواتها بخفةٍ مدهشة لامرأةٍ اعتادت الخدمة طوال عمرها ، كأنها سعيدة بأن تكون شاهدة على شيء ما ، حتى لو لم تفهمه تماماً.

مرحاً ، رفع الفتى قنينة النبيذ ، وأنشد بصوتٍ عذب ، نبرة شاعرٍ يؤمن أن العالم يُخلق من جديد حين يقع عاشقان:

حطّموا الكاسات يا رفاق

واهرقوا ما في الدنان

فقد جاءت حبيبتي

ألا يكفي الحب نبيذاً ؟

ضربت فراو فلورا كفّها بكفّها إعجاباً:

شعر جميل !

قالت هنريت بابتسامة خفيفة :

شعر هنريك يا فراو فلورا...

أجل، أجل... باركتكما السماء يا ابنتي. سأكون في الزورق إن احتجتما شيئاً.

*

جلسا يتناولان الطعام في صمتٍ يقطعه صوت الماء ، وهدير الغابة من بعيد ، وحفيف أوراق لم تمسّها الريح بل ذكرياتٌ تتسلل داخلهما.

كان وجه هنريك متوتراً ، كأن الفكرة التي يحملها تطرق رأسه بإلحاح . وفي داخله ، كانت كلمات كثيرة تدور ، تتشابك ، تتصارع : هل يولد الحب مكتملاً أم ينضج في جرح ؟ هل تشبه النهاية بدايةً جديدة أم سقوطاً لا صوت له ؟ وهل الخلود ممكن إلا إذا توقف الزمن عند لحظة واحدة ؟

أما هنريت ، فكانت نظراتها تتنقل بينه وبين البحيرة ، وبين الغابة التي تنتظر بخبثٍ مكتوم . كانت تشعر أن ثمة أمراً عظيماً يقترب ، شيئاً أثقل من الكلمات التي قالها عند الحفرة ، وأعمق من الشعر الذي أنشده قبل قليل. وكانت ، رغم خوفٍ خفيٍّ يسري في أطرافها، تقاوم رغبةً طفولية بأن تمسك يده وتمضي به إلى أبعد بقعة في العالم.

لكنها لم تفعل.

*

فرغا من طعامهما ، فاقتربت فراو فلورا من الشاطئ تجمع الصحاف . كانت تغني بصوت منخفض ، أغنية ألمانية قديمة تتحدث عن عروس تنتظر فارسها تحت شجرة الزيزفون.

فجأة، مدت هنريت يدها ، وفيها خاتم ذهبي يتلألأ عليه فص ماس صغير.

قالت لها بنبرة امتنان صادق:

سأذكر دائماً أنك قدمتِ لنا أعظم الخدمات دون تذمر... خذي هذا ، أرجوك.

شهقت السيدة فلورا ، وتأملت الهدية في ذهول:

خاتم ذهبي ؟ وما هذا الفص ؟ ماس؟ يا آنسة... إنه أثمن من أن تضعه في إصبعها زوجة فندقي مثلي !

ابتسمت هنريت ، لكنها لم تقل كلمة واحدة تبحث عن تواضع أو حدود . قالت فقط :

إني أعطيه لكِ عن طيب خاطر... لتذكّرينا أنا وهنريك.

هنا ، توقفت فراو فلورا للحظة . شيءٌ في العبارة كان غريباً ، كأن وراء الكلمات جداراً يخفي غرفة مظلمة.

سألتها وهي تحاول أن تضحك :

وهل يمكن أن أنساكما أبداً يا آنسة فوجل؟

لكن هنريت كانت تحدّق في الغابة السوداء... كأن شيئاً هناك يناديها.

*

عندما عادت فلورا بالزورق إلى الضفة الأولى ، كان العاشقان قد ابتعدا نحو الدغل ، يسيران بخطواتٍ بطيئة ، وكأنهما يمشيان في ممرٍّ نحو قدرٍ اختاراه قبل أن يولدا . كانت يد هنريك تضغط على يد هنريت بقوة ، كأنما يخشى أن تفلت منه قبل أن يكتمل ما بدأه.

وفي داخلهما ، كان الحوار الحقيقي يجري:

هل يمكن للحب أن يصبح ملاذاً من العالم ؟ أم يصبح طريقاً إليه ؟ هل النهاية رحمة أم خيانة ؟ هل يولد الإنسان مرتين : مرة من أمّه، ومرة من قلبه ؟

لم نعرف ما قاله لها وهو يقف أمام الحفرة من جديد ، ولا ما قالته هي حين نظرت إليه بنظرةٍ طويلة أبدية . كل ما نعرفه أن الغابة كانت تراقب ، والريح كانت صامتة أكثر من اللازم ، والبحيرة كانت تبقى هادئة حين يجب أن تضطرب.

وبينما كانت الشمس تغوص ببطء في الأفق الأخير ، لم يظهر العاشقان مرة أخرى.

لكن فراو فلورا ، وهي تحدّق في الخاتم الذي وُضع في كفها ، أحست بقشعريرة خفيفة تسري فيها... كأن لمعان الماس كان يحمل وعداً... أو وصية... أو نهايةً لم تُكتب بعد.

وبقي السؤال معلقاً، مثل غصنٍ لا يعرف إن كان سينحني أو ينكسر:

ماذا كانا ينويان ؟

وما الذي سترويه الغابة السوداء عن ليلتهما الأخيرة ؟

طلقتان في قلب الغابة السوداء

عادت فلورا عبر صفحة البحيرة الهادئة كمن يعود من حلم جميل ، والزورق الصغير يتهادى تحت يديها مثل طائر أنهكه التحليق . كانت الشمس في لحظتها الذهبية ، لحظةٌ يختلط فيها نور المغيب بزفرات الليل الأولى ، فترتجف الأشياء على حافة التحول. رأت الشاطئ المقابل يقترب كما لو أنّه يستدعيها، وكانت الضحكاتُ ما تزال تتردد في الهواء، ضحكاتٌ طازجة، خفيفة، كأنها ولدت للتوّ من صدري طفلين يلعبان على حافة الدنيا.

هُما هناك... هنريك وهنريت، يركضان بين أشجار الغابة السوداء الشهيرة ، أشبه بظلّين من زمن مفقود . كانت الغابة تتقبل عبثهما بوجهٍ صامتٍ عتيق ، بينما كانا هما يقدمان قربان الحياة في وجه موتٍ يراقبهما من بين الأغصان. فلورا لوّحت لهما بيدها ، وعلى وجهها تلك السعادة البسيطة التي يشعرها من يرى شابين لا يشغلهما شيء إلا أن يضحكا ، أن يلمسا الأرض بأقدامهما العارية ، أن يتركا لنسيم البحيرة حق التدخل في قلوبهما.

حين بلغت الشاطئ ورفعت الزورق، دار في ذهنها أن ترسل شارلوت إليهما لتصحبهما عائدين. فكّرت في وجهيهما ، في تلك الطفولة المتأخرة الملتبسة في ملامحهما ، ثم صعدت درجات الفندق . غير أنّها ، قبل أن تلمس يدها مقبض الباب، سمعَت الطلقة.

طلقة واحدة شقّت الهواء كما لو أنها رغبت في أن تترك عليه ندبة. وبعدها ، بأقل من دقيقة ، جاءت الطلقة الثانية... قصيرة ، حاسمة ، كأنها توقيع على رسالة كُتبت منذ زمن بعيد.

ساد السكون.

الهواء نفسه بدا مصدوماً ، يتعثر قبل أن يلتقط أنفاسه . الفندقي وزوجته وشارلوت ، وحتى صمت الفندق العجوز ، كلهم سمعوا الطلقتين القادمتين من الضفة الأخرى... من الغابة.

انزلقت فلورا من مكانها كمن يدفعه قدر لا يعرف الرحمة. تبادل الفندقي وزوجته نظرة انقبض فيها الخوف حتى كاد يتحول إلى كائن ملموس .

قال الفندقي، محاولاً أن يبدو متماسكاً:
» لعلّهما توغلا في الغابة... يجب أن نبحث عنهما. ربما كان هناك صيّاد طائش أطلق النار دون أن ينتبه.«
لكن زوجته صاحت بصوت مرتجف :
"مستحيل ! كنت أراهما قبل دقائق... كانا قريبين جداً من الشاطئ. لم يبتعدا. كانا يضحكان... يتعانقان... مستحيل. «!
غير أن الغابة لا تُكذّب أحداً ، ولا تبرّئ أحداً . هي فقط تبتلع ما يدخلها، ثم تعيده، مشوّهاً أو خامداً أو مطوياً على سره.

⊥

دخلوا الغابة.
لم تكن خطواتهم فوق الأرض الرطبة إلا دقات على باب مجهول . وكلما تقدّموا امتدّ الظلام داخل النفوس . فلورا كانت أول من رأت المشهد... كانت أول من صرخ.
عند جذور شجرة منزوعة ، في حفرة اختارها العاشقان هكذا قرروا أن يسمّوهما رقدت هنريت فوجل. رأسها مائل كما لو أنّها تستمع إلى نداء بعيد ، ورصاصة في جبهتها كالختم الأخير على معاناتها.
وفوقها ، كجسد يريد أن يدفن نفسه في جسد آخر ، كان هنريك كليست قد أسلم روحه . مسدسه ما يزال ساخناً بين أسنانه.
صرخت فلورا:
» يا إلهي... لقد... لقد انتحرا؟ لماذا ؟ لماذا بحق السماء ؟.«
لم يجبها أحد. حتى الغابة لم تجب . ربما كانت تعرف الإجابة ، لكنها لم تكن مستعدة لمشاركتها مع بشر.

⊥

حين وصل قاضي التحقيق ومعه رجاله، فتح الفندقي الرسالتين اللتين أوكله هنريك بحملهما. الأولى كانت موجهة إلى صديق يدعى بيجلين:
» تعالَ يا صديقي بيجلين إلى فندق الزنبقة الورعة في قرية ستيمنج على بحيرة وانسي، لتتولى دفن جثتينا «.
والثانية كتبتها هنريت بخطٍ مرتجف ، كمن يكتب على حافة هاوية:

» أنا على ثقة من أنك تفهم دوافعي إلى ما فعلت ، ولذلك ستغفر لي. ليس للحب دخل فيما فعلنا . ليت زوجي يفهم هذا . أما أنت يا أبي ، فأنت خير من يعرف ما كنت فيه من عذاب «.

⊥

وفي المساء، حين جلسنا أنا و صديقتي في صالون الفندق المتشح بالحزن ، سألتني في دهشة :

» لماذا انتحرا العاشقان يا صديقي ؟.«

قلت لها مبتسماً بسخرية حزينة :

» ومن قال إنهما عاشقان؟ رسالة هنريت وحدها صرخة تقول إن الحب ليس السبب.«...

سألتني، وهي تحدق في وجهي كما لو أنني أحمل سرّ الغابة السوداء في صدري :

» إذا لم يكن الحب... ماذا إذن ؟ ما الذي يدفع شابين في مقتبل الحياة إلى أن يسلّما نفسيهما للموت بهذا الخضوع ؟.«

وهنا... هنا انفتح في ذهني باب لم أجرؤ يوماً على طرقه.

باب اسمه **العقل** حين يصبح سجناً.

وباب اسمه **اليأس** حين يُغلق كل مخارج الضوء.

شعرت بتيار الوعي يجرفني ، يحملني عبر متاهات نفس هنريك ، عبر تلك الظلال التي كانت تتحرك في فكره مهما ضحك ، مهما ركض بين الأشجار.

تخيّلت هنريك في أيامه الأخيرة:

كاتب ، شاعر ، مفكر ضاقت الدنيا على صدره. رأى العالم على حقيقته القاسية ، فرأى نفسه غريباً تماماً عنه. رجل يعيش في زمن مضطرب ، ألمانيا تتهيأ لانفجار الثورات الفكرية ، أوروبا المرهقة من الحروب ، من الفلسفة ، من التنوير الذي لم يأتِ بنوره كاملاً.

رأى الوجود خيبةً كبرى ، ورأى نفسه في معركة غير متوازنة مع قدرٍ لا يلين.

أما هنريت... امرأة أنهكها الألم. ليست عاشقة تبحث عن رومانسية هاربة ، بل روحٌ ممزقة بين واجباتها وأوجاعها ، بين المرض الروحي والقلق الذي كان ينهشها . رسالة أبيها تفضح الحقيقة:

هي لم تكن تطلب حباً... كانت تطلب نهاية.

نهاية صامتة... هادئة... تشاركها فيها روحٌ تشبه جراحها.
ربما وجد كل منهما في الآخر مرآة... لا مرآة حب ، بل مرآة يأس. مرآة تعكس هشاشة الإنسان أمام شبح العدم.
إنّها مأساة نفسية أكثر منها عاطفية . فلسفية أكثر منها اجتماعية. إنها تمرد هادئ على الألم.
قالت لي صديقتي :
» لكن هل يمكن أن يتفق اثنان على الموت ؟.«
قلت لها وأنا أتأمل الظلام خلف نافذة الفندق :
" ربما ...حين يعجزان عن الاتفاق على الحياة.«

⊥

جلست شارلوت قرب الموقد ، تبكي بصمت. كانت تقول إن هنريك في الصباح نفسه كان يضحك معها ، يسألها عن الطقس ، وعن القهوة التي أعدّتها. لم يكن يبدو كمن يخطط للموت.
وهنا يلمع السؤال الذي يلتهم القلوب:
هل ينتحر الإنسان فجأة ؟ أم أن الانتحار فكرة تنضج ببطء... حتى تتحول إلى فعل ؟
تخيّلت هنريك وهو يراقب الأوراق المتساقطة من شجرة أمام الفندق ...كل ورقة تموت بهدوء .تسقط كأنها توافق على المصير.ربما رأى نفسه ورقة.
تخيّلت هنريت وهي تضع رأسها على كتفه قبل ساعات فقط... لم تكن قبلة عاشقة ، بل قبلة شخص يريد أن يودّع العالم من خلال ملمس بشري أخير.
ربما لم يكن الاثنان عاشقين...بل شهوداً على عذاب بعضهما البعض ، ممرّين في الحياة على جسر هش ، فانكسَر الجسر تحت قدميهما في اللحظة نفسها.

⊥

في الليل، حين أطفئت الأنوار، بقيت الطلقات تتردد في أذني مثل نداء قديم.
طلقتان فقط... لكنهما فتحتا باباً لن يُغلق.

هل كانت الطلقة الأولى لهنريت لأنها لم تعد تحتمل نفسها ؟ أم كانت الطلقة الثانية ردّ هنريك لأنه لم يستطع احتمال العالم من دونها ؟ أم لأن الموت بدا لهما معاً أقل قسوة من الحياة؟

لا أحد يعرف. الغابة وحدها تعرف. الليل يعرف. الرسائل تعرف. لكنها كلها... تصمت.

⊥

سألتني صديقتي مرة أخرى:

» إذا لم يكن الحب... فماذا إذن ؟.«

نظرتُ إليها طويلاً، وشعرت بأن الكلمات لا تكفي.

فقلت:

ربما كان السبب... ذلك الشيء الذي لا نسمّيه أبداً.الجراح التي لا نعترف بها. الألم الذي لا نشاركه مع أحد. الوحدة التي تنام معنا وتصحو معنا.

ذلك الليل الطويل داخل الصدر... الذي لا يعرف عنه أحد شيئاً.«

سكتُّ.

هي أيضاً سكتت.

كان السكون بيننا يشبه السكون الذي خيّم على الغابة بعد الطلقة الثانية.

⊥

في الخارج، كانت الريح تهزّ أشجار الصنوبر .أصواتها تشبه بكاء بعيد... أو ربما تشبه ضحكات هنريك وهنريت قبل الغروب بقليل.

ضحكات بقيت معلّقة في الهواء...

تماماً كما بقي السؤال معلّقاً في أرواحنا:

ماذا إذن؟

سؤال بلا جواب.

مثل الطلقتين... مثل العاشقين...مثل الغابة السوداء نفسها.

نهاية... لكنها ليست نهاية.

ظلال وانسي... حين يهمس الماء

لمّا هبط الغسق على ضفاف بحيرة وانسي ، كان الضباب الخفيف ينساب مثل شالٍ رماديّ فوق الماء ، يبتلعه ثم يعيده في أنفاس بطيئة ، كأنه يتذكّر شيئًا لا يريد أن يقوله . وفي ذلك الفندق الصغير، "الزنبقة الورعة"، حيث تصطكّ الأرض بأحذية المسافرين وتتناثر رائحة الخشب القديم على الجدران ، جلسناصديقتي أنا صديقتي صديقتي نحاول أن نفكّ آخر لغز في حياة الشاعر هنريك فون كليست والشابة هنريت فوجل.

كانت صديقتي ، كعادتها ، سريعة الحكم ، لامعة العينين كأنها تبحث عن كلمة تهدم كل دفاعاتي . قالت وهي تعبث بصفحات الملف الأصفر:

لازلت أصر يا صديقي على أن الحب اليائس وراء الجريمتين ، مهما حاولت أن تغلّف الأمر بفلسفة قاتمة.

أجبتها بهدوء مشوب بالتأمل :

لكن الرسالتين، يا صديقتي، الرسالتان اللتان بعثا بهما من الفندق إلى برلين... ألا تحملان ما هو أبعد من الحب ؟

هنا أغمضتُ عينيّ لحظة ، واستحضرت الكلمات الثقيلة التي كتبها كليست لصديقه بيجلين :

» تعال يا صديقي إلى فندق الزنبقة الورعة في قرية ستيمنج على بحيرة وانسي ، لتقوم بإجراءات دفن جثتينا«.

أحسستُ حينها بأن الريح التي تهز شبابيك الفندق في تلك الليلة ليست إلا صدًى لصوت الشاعر نفسه ، كأنها تعيد عبارته كلّما انطفأت النار في الموقد.

صديقتي لم تتراجع. فتحت الرسالة الثانية، رسالة هنريت لأبيها :

» أنا على ثقة من أنك تفهم دوافعي إلى ما فعلت ، وستغفر لي. ليس للحب دخل فيما فعلنا. عسى أن يفهم زوجي ذلك . أما أنت فأنت خير من يعرف ما كنت فيه من عذاب«.

ألقت الرسالة على الطاولة ورفعت حاجبًا متحدّيًا:

وما العذاب غير الحب، يا صديقي؟

تنهدتُ طويلًا . كنت أعرف أن الطريق بيننا سيطول ، ليس لأن الحقيقة عصيّة ، بل لأنها متشظّية ، تتراقص مثل ضوء الشموع على الجدران.

⊥

حين أغوص في يوميات هنريك فون كليست ، أشعر كأنني أمشي داخل غابة متشابكة ، ثمة فروع تجرح وجهي ، وأصوات خافتة تسألني عن جدوى الوجود. رجلٌ يكتب مرارًا :

» الحقيقة أنّ أحدًا على ظهر هذه الأرض لا يستطيع إقناعي بجدوى الحياة بلا حب«.

لكن ما هو الحب عند كليست؟

هل هو امرأة ؟ أم وهم ؟ أم مرآة يرى فيها فشله وخوفه القديم من أن يعيش حياة بلا بطولة ؟

كان كليست ، في أعماقه ، طفلًا يبحث عن معنى ، شاعرًا يتعثر بثقل ذاته . كان يشعرصديقتي منذ شبابه الأولصديقتي أن العالم بارد ، وأن البشر مجرد مؤدين في مسرح لا يدركون أسباب وجودهم.

تتسلل الأفكار في رأسه كعيونٍ كثيرة تحدّق فيه وتقول :

إن لم تكن قادرًا على صناعة مصيرك، فاهرب منه.

لم يكن الهروب جبنًا عنده ، بل خيارًا فلسفيًا . خيارًا كان يقوده نحو فكرة “ إتلاف الذات ” ، تلك الفكرة التي روّج لها الأدب الرومانسي الأوروبي بلا خجل.

⊥

قلت لصديقتي :

ما حدث يا صديقتي هو الثمرة المُرّة لإغراق الأدب الرومانسي في تقديس الذات حتى حدود الجنون.

ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة:

أهذا اتهام لجيل كامل من الأدباء ؟

بل وصف لحقيقة.

الرومانسيون- من جوته إلى شاتوبريان ومن روسو إلى نوفاليس- جعلوا من الذات معبدًا ، ومن الألم وسامًا ، ومن الانتحار بطولة . رواية " آلام فرتر " كانت شرارة . في صفحاتها قال فرتر :

» حياتي ملكي وحدي. إذا أردتُ التصرف في ملكي بالهبة أو الإتلاف ، فلا حق لأحد في محاسبتي«.

ثم مات بإطلاق النار على نفسه.

وقبله كتب نوفاليس عبارته الشهيرة :

الانتحار ليس قتلًا ، إنه اكتشاف آخر للذات

وقالت مدام دي ستال : هناك سببان يمنعان الناس من الانتحار: الألم والخوف من العالم الآخر

ومع هذا... حاولت الانتحار مرارًا.

كان ذلك العصر يرى في الموت نوعًا من الحرية ، ومن البطولة ، ومن التطهر... حتى صار الانتحار " موضة " بين شباب أوروبا.

⊥

وضعتُ أمام صديقتي مشهد اللقاء الأول بينهما. قلت لها:

-هنريت فوجل لم تكن عاشقة طائشة ، بل امرأة تقف على حافة روحها.

ابنة بارون ، زوجة رجل واثق من نفسه ، غنية ، أنيقة ، لكن المرض كان ينهشها ببطء . كانت تخاف النهاية أكثر مما تخاف الحياة. وكانت روحها مُثقلة بوحشة لم تستطع أن تقولها لزوجها ولا لأبيها.

وعندما التقت كليست، شعرت بالخطر... وبالراحة أيضًا .

هو رجل يرى العالم من الناحية الأخرى، الناحية التي تميل نحو الظلال.

وربما لأول مرة ، رأت في أحدهم صوتًا يشبه صوتها الداخلي :

ذلك الصوت الذي يهمس :

النهاية قد تكون خلاصًا.

هكذا بدأ بينهما حوار طويل ، ليس عن الحب ، بل عن العدم ، عن الألم ، عن الذات الممزقة .

لكن المجتمع لا يفهم هذه اللغة، فيسميها "غرامًا."

⊥

قالت صديقتي :

لكنّ الشهود قالوا إنه كانا يضحكان ، يلعبان ، يتنزهان في القارب وكأنهما طفلان. أليس هذا دليل حب ؟

أجبتها:

بل هو دليل قرب الفراق. الإنسان يضحك كثيرًا قبل النهاية.

في اليومين الأخيرين عاشا طفولتهما الضائعة.

ركضا على ضفاف البحيرة ، التقطا الأزهار البرية ، شربا الشوكولاتة الساخنة في غرفة صغيرة تطل على الماء .

كانت لحظات من حياة لم يعيشاها قط .كانا يعرفان -في سرّهما - أن الساعات الأخيرة يجب أن تكون بيضاء... كي لا يلطخها الدم بعد ذلك.

في يوميات الفندق ، كتب صاحب النزل :

» كانا هادئين ، مبتسمين ، كأنهما يصنعان ذكرى لا يريدان للزمن أن يفسدها«.

⊥

سألتني صديقتي بصوت منخفض، كأنها تعود إلى عمق السؤال:

لماذا لحقت به ؟ لماذا تركت زوجها ؟ وكيف أحبت رجلًا تعلم ألمانيا كلها عقدته النفسية وعجزه ؟

قلت:

لأنـها لم تتبعه حبًا ، بل هربت معه من الألم.

الزوج ـ أنطوان فوجل ـ كان ناجحًا ، لامعًا ، واثقًا ، قويًا .رجلٌ يرى العالم بمنطق الربح والخسارة.

أما هنريت... فكانت عالمًا آخر . عالمًا هشًا ، شفافًا ، سريع الانكسار . ولم تستطع أن تقول لزوجها أنها لم تعد تحتمل ، أنها تشعر بأن المرض يأكل روحها.

كليست لم يمنحها قوة ، بل منحها مرآة. رأت فيه ضعفها ، ووجدت معه شخصًا لا يخاف من النهاية مثلها . وجدته صديقًا للعدم.

⊥

يقول الراوي في الوثائق :

إن الشاعر طلب من هنريت الجلوس أمامه قرب الماء.

قال لها كلمات لم يسمعها أحد.

ابتسمت . ربما شكرته . ربما ودّعته .

ثم وضع المسدس على صدرها .

أغمضت عينيها .

وانطلقت الرصاصة.

كانت الطيور لحظتها توقفت عن الطيران .

كأن البحيرة كلها شهقت.

ثم جلس بجانبها، وأسند رأسه إلى كتفها، وأطلق الرصاصة الثانية في فمه .وقع فوق جسدها، وكأنهما عادًا طفلين ينامان بعد بكاء طويل.

⊥

قالت صديقتي ، وقد انكسرت حدّة صوتها:

إذن فالحب هو السبب؟

أجبتها وأنا أنظر إلى الضباب فوق الماء:

بل فقدان الحب . فقدان القدرة على الحياة . فقدان المعنى.

بعد موته لطخت الصحف سمعته.

كتبوا:

» قرف من الحياة . احتقار لها«.

ولم يدافع عنه أحد ، لأنه لم يكن من علية القوم.

أما أنا فأرى الحقيقة أبعد من ذلك.

لقد قتلهما عصرهما ، قتلتهما الفلسفة الرومانسية ، ذلك الهوس بتقديس الذات ، وتحويل الألم إلى تاج.

وربما- وربما فقط- قتلتهما رغبة عميقة في أن يسكنا عالمًا لا يحتاج إلى تبرير وجودهما.

⊥

وقفتُ صديقتي على شاطئ البحيرة.

كان الماء ساكنًا ، لكني أقسم أني سمعت همسًا خفيفًا ، همسًا يشبه صوت شخصين يغادران العالم وهم متشابكا الأيدي.

سألتني صديقتي :

لو كنت مكانه... هل كنت تفعل ما فعل ؟

لم أجب . لم يكن هناك جواب.

ثمة أسئلة لا تُجاب ، بل تُترك معلّقة فوق الماء ، مثل ضوء القمر ، تسقط وتعود ، دون أن تعرف إن كانت الحقيقة أم مجرد طيف.

وربما.

ربما لم يكن هنريك فون كليست يبحث عن الموت ، بل عن حياةٍ أخرى لم يجدها على الأرض .

وربما كانت هنريت فوجل تبحث عن صمتٍ لا يؤلمها .

وربما كان الحب... أو فقدانه... أو شيءٌ ثالث لا نعرفه.

هكذا تبقى القصة... مثل البحيرة ...

هادئة فوق السطح، وعميقة في الأسفل إلى حدّ لا يصل إليه أحد.

هكذا كان عصرهما ، و ما فيها من رومانسية .. هو رومانسي فقد الشهرة في الحياة ، هى رومانسية فقدت الحياة من الألم الذي ينهش جسدها ، و روحها

حيث يتهامس التاريخ بالجنون

كان المساء يهبط على المقصورة الخشبية الصغيرة عند أطراف بحيرة وانسي ، والريح تعوي كأنها تستدعي أرواح الذين رحلوا. وفي الداخل، كان الحوار بيني وبين صديقي يمتدّ كأنه صدى بعيدٌ لخطى «هنريك فون كليست» نفسه، ذلك الشاعر الذي عاش بين الكلمة والجرح ، بين الحلم والهاوية.

قلتُ له، وأنا أحدّق في صفحة الليل كأنني أقرأ عليها مصير البشر:

عجز عن تحقيق الثراء الذي حققه شعراء أقل منه قدراً... بل عجز عن ممارسة الحب.

لم تكن الجملة مجرد حكم، بل كانت انعكاساً لصراع رجل لم يعرف من الحياة إلا حدَّها القاطع. وكأن كليست، منذ البداية، كان يحمل في صدره بذرة الاحتراق.

رفع صديقي رأسه وقال بنبرةٍ مترددة :

العجيب أنّ خصمه العنيد جوته أنصفه في جملة نشرتها له مجلة الشعر الحديث . كتب جوته

:إن انتحار هنريك فون كليست يعكس ما في شخصيته من متناقضات . غواية هنريِت فوجل ، وإقناعها بقبول فكرة الانتحار المشترك ، سقطة أخلاقية تتناسب مع استهانته بحياة الآخرين . أمّا انتحاره هو ، فإني أراه تحدياً شجاعاً للمجهول.

ثم توجه إليّ بالسؤال :

ألا ترى ، يا صديقي ، أن التناقض يكمن فعلاً في شخصية جوته ؟

ابتسمت بمرارة ، وأحسست أن الكلمات التي أريد قولها ثقيلة ، كأنها تأتي من عمق قرنٍ كامل .

قلت:

أنت على حق .وما أكثر الذين اتهموا جوته بأنه الدافع الحقيقي لذلك الانتحار المشترك ؛ ليس فقط بكتابة آلام فرتر ، بل بالتحريض المتتابع المهين. ففي كل مرة كان الشاعر الشاب يذهب إليه بقصيدة ، يريد رأيه ، كان جوته ينهره باحتقار :

أيها الفتى ، كفّ بالله عن اقتحام عزلتي بهذا الشعر التافه!

كنت أتخيل المشهد:

كليست ، واقفٌ أمام ذلك العملاق ، وكتبه في حضنه ترتجف ، ووجهه يحمرّ كمن يختبر احتراقاً داخلياً . ومع هذا كان يجيب باحترام مؤلم:

ليس هناك شاعر آخر على وجه الأرض يستطيع أن يحكم على شعري حكماً صحيحاً غيرك .

لكن جوته الذي كان يرى في كل شاعر شاب تهديداً لمجده كان يرمقه بنظرةٍ باردة قبل أن يقول بصوته المتعجرف :

وقد حكمت . هذه ترهات سخيفة ، لا يكتبها إلا طالب مراهق في مدرسة ثانوية . أفكار هذائية غير مرتبة ، ومخالفة شاملة لكل قواعد الشعر الألماني . اذهب إلى فرنسا ، فلعلهم يقبلون منك مثل هذا السخف.

⊥

توسعت صديقتنا في طرح الأسئلة ، وقد كانت تستمع إلينا كمن يستمع إلى أسطورة :

هل كان كليست معروفاً وقتها ؟

فأجبت :

لم يُعرف إلا بعد موته . بعد تلك الرصاصة المزدوجة عند أطراف الغابة ، تنبّه النقاد إلى أعماله ، وما أكثرها ! كلها بقيت حبيسة الأدراج

التطهير بالنار... أحزان كاترين... متوسلة القرية الحسناء... ميشيل كولهاس... أمير هامبورج.

وكأنما كان القدر ينتظر موته كي يسمح لنصوصه بأن تتنفس.

سألت مرة أخرى ، وعيناها تنفتحان بدهشة :

أكان جوته على حق في احتقاره لأعمال الشاعر الشاب ؟

هززت رأسي :

كلا . كما قلت لك ، كان جوته شديد الغيرة . وكان مثل بتهوفن لا يمدّ يداً لمساعدة الفنانين الشباب. بل كان يقف على بوابة الفن كحارس غيور لا يسمح لأحد بالصعود .

كل إحباط دخل حياة كليست كان بسبب هذه الغيرة ، وهذا الرفض القاسي للاعتراف بموهبته . ثم حدث ما زلزل كيانه : مرضٌ غامض أفقده فحولته كرجل.

تخيل رجلاً يحب الحياة والجسد والأنوثة ، ثم يفقد فجأة ما يظنه صميم قدرته على الحب . كانت رسائله تلك التي كتبها بدموعٍ حقيقية تشي بفزعه من أن يعيش حياة زوجية طبيعية.

قرأ لنا أحدُ الزملاء المقطع الشهير من رسالته إلى إحدى فتيات المدرسة الثانوية :

إنني أحبك... أحبك أيتها الغبية الجميلة .

أحببتك منذ أول يوم جئتِ فيه إلى بيتنا لزيارة أختي أورليك .

وأقسم أني سأقتل نفسي إذا لم تذهبي معي اليوم إلى الغابة .

جملة كهذه لا يكتبها إلا شابٌ يرى العالم كله من خلال جرحه الخاص.

حتى في تلك السن المبكرة ، كان يفكر في إتلاف الذات . ومع الوقت ، حين أدرك أن فتيات القرية يعرفن عاهته ، وتحوّل سره إلى وشاية ، ازداد عزمه على إهلاك نفسه كما لو كان يسير نحو مصير مكتوب.

⊥

هنا تداخل صوت صديقي في الحوار، كمن يريد أن يرى ما وراء هذا السرد :

ولكن ، كيف يمكن لشاعرٍ لم يعرف جسداً أن يكتب عن الحب بذلك العنف ، بذلك الاندفاع ؟

أجبته وأنا أشعر أن الغرفة تضيّق علينا شيئاً فشيئاً :

هذا هو العجيب .

لم يتغنَّ أحد بالحياة والحب بقوة وصدق مثلما فعل كليست . ربما لأن كل ما افتقده في الواقع ، كان يبتكره في الخيال .

كان يخلق حبيبات لا يعرف لحمهن ، ولا يلمس بشرتهن ، لكنه يعيش فيهن كما يعيش المرء في حلمٍ يائس لا يريد أن يصحو منه.

أغلق صديقي دفتره ، ثم قال :

ما يجعلني مشدوهاً هو هذا التناقض : رجل يدعو امرأة إلى الانتحار المشترك ، وفي الوقت نفسه يكتب عن الحب كأن الله وضع في صدره قنديلاً لا ينطفئ.

التناقض هو اسم كليست الحقيقي ، قلتُ.

كل شيء فيه كان مزدوجاً : القوة والضعف ، النشوة والهلع ، الرغبة في الحياة والرغبة في الفرار منها . حتى موته كان مزدوجاً : رصاصة له ، ورصاصة لهنريت فوجل... تلك التي أقنعها بأن ترافقه إلى الجانب الآخر. هل كان ذلك حباً ؟ أم بحثاً عن شاهد يرافقه إلى الفناء ؟ أم طقساً يعيد له رجولته المفقودة عبر فعلٍ أخير يتحدى فيه الوجود ؟

⊥

وفي تلك اللحظة، شعرتُ كأن صوت كليست نفسه يهبّ من الغابة ، عبر الريح التي تضرب النوافذ.

كأن تيار وعيه ذلك المزيج من الذعر والشغف يعود ليعبر من خلالنا:

ما معنى أن يعيش المرء إن كان الحرمان ينهش أعماقه ؟ ما معنى أن يُكتب الشعر ولا يُسمَع ؟ ما معنى أن نعشق إلهاً لا يمدّ يده إلينا ؟

كنت أسمع صوته ، لا كذكريات ، بل كحضورٍ حقيقي . وأتخيله جالساً عند ضفة البحيرة ، يراقب صفحة الماء ، ويداه ترتجفان من رياح الداخل قبل رياح الخارج.

كان عقله كغرفة مظلمة تضيئها شرارات متقطعة :

مرة يرى المستقبل كطريقٍ يتسع ، ومرة يراها كحفرة تتسع أيضاً.

كان يريد المجد ، ويريد الحب ، ويريد أن يخلّد اسمه. لكنه أيضاً كان يريد أن ينتهي.

سألت نفسي: هل كان الانتحار هروباً أم إعلاناً ؟ أم لعله كان القصيدة الوحيدة التي استطاع أن يُتمّها دون رفضٍ من أحد؟

عند هذه النقطة ، عاد صديقي ليقول:

لعل جوته، رغم غروره ، رأى في كليست شيئاً يخافه . شيئاً يشبه ظلّه. الشاعر الذي يتجرأ على الهاوية أكثر مما ينبغي .

نعم، قلت.

ربما كان جوته يرى في كليست نسخة أكثر حدة منه . نسخة لا تكذب على نفسها . نسخة لا تخشى أن تكشف هشاشتها .

وربما لذلك، حين كتب رأيه بعد موته ، بدا ذلك التناقض جلياً: هو يهاجم أخلاقه ، لكنه يمتدح شجاعته . يصفه بالمتهور ، ثم يصفه بالمجترئ على المجهول.

أليس هذا اعترافاً مقنّعاً ؟أليس هذا ما يحدث دائماً بين الكبار والصاعدين؟

الخوف ، لا النقد ، هو ما يصنع العداء.

⊥

وبينما يغمر الغرفة صمتٌ ثقيل ، رأينا جميعاً الصورة الأخيرة:

كليست واقف على حافة الغابة ، هنريت بجانبه ، صوت الماء قربهما يشبه دقات قلبٍ يحتضر.

كانت الرصاصة جاهزة ، والخوف أيضاً جاهز ، لكن شيئاً آخر كان يتحرك في أعماقه :

ذلك الصراع الأبدي بين الحياة والموت... بين الحب والعجز عنه... بين الصعود والاحتراق.

ولذلك، حين ضغط الزناد ، لم يكن يقتل نفسه فقط ، بل كان يقتل سؤالاً لم يجد له جواباً طوال حياته :

لماذا لا يقبل العالم بي كما أنا ؟

⊥

بقيت نهايته مفتوحة ، رغم يقين الموت ، لأن السؤال بقي حياً. ولأن كل شاعر يمرّ بتجربة الشكّ في نفسه ، يجد في كليست مرآةً مظلمة يرى فيها ظله الخاص .

ولأن كل قارئ يتساءل:

هل كان يمكن إنقاذه ؟

هل كان يمكن لقصيدة واحدة ، أو لحبّ واحد ، أو لكلمةٍ غير مهينة من جوته ، أن تغيّر مجرى التاريخ ؟

لا أحد يعرف.

الأسئلة ، كما هي العادة ، تعيش أكثر من البشر.

وهكذا ، في تلك الليلة ، ونحن نتبادل حواراً طويلاً عن رجلٍ مات منذ قرنين ، أحسسنا جميعاً بأنه لم يمت حقاً... وأن خطاه ما زالت تُسمَع على حافة الغابة ، حيث يلتقي الشعر بالجنون ، ويُترك للقارئ أن يقرر النهاية بنفسه.

رحلةٌ إلى الأبدية

كان الغروبُ في قريته يُسدل ستارًا من ألوانٍ ناعسة على السهل ، كأن الشمس ، وهي تهوي خلف التلال ، تجرّ معها سرًّا لم يتجرّأ أحد على الإفصاح عنه . وحده هنريك فون كليست كان يشعر أنّ هذا الضوء المائل ليس سوى مرآةٍ تميل معه ، تكشف له نصف وجهه وتُخفي نصفه الآخر ، فتجعله يرى هشاشته مضاعفة ، ورغبته في الهرب متربّعة على صدره .

لكن التاريخ لا يرحم الهاربين.

وتاريخه يقول إنه تقدم للزواج من إحدى فتيات قريته .

كان ذلك اليوم يشبه يومًا عادياً ؛ إلا في داخله ، إذ شعر وكأنه يُساق إلى قدرٍ لم يختَرْه . تقدّم راغمًا ، يدفعه تحريضٌ حارق من أخته أولريك ، التي فاجأته حين وقفت أمامه ذات صباح ، كأنها تجسيدٌ لسلطة القدر نفسها.

قالت بصوتٍ لا يقبل التراجع :

ما رأيك في ولمينا فون زِنج ؟

رفع عينيه نحو النافذة تفاديًا لثقل السؤال ، متظاهرًا بأن الضوء أهمّ من مصيره.

جميلة ، ولكنها ضعيفة الشخصية.

ابتسمت أولريك ابتسامة امرأة تعرف خبايا الرجال :

ثرية... وتحبك.

أولريك ؟ أتريدين لي فضيحة مدوية ؟

اقتربت منه خطوة ، وكأنها تضع يدها على جرحٍ لم يعترف بوجوده قط :

العلاج موجود يا عزيزي في برلين . ما عليك إلا أن تطلبه ، فتعيش حياةً سوية بدل هذا التنقل الفاشل في صحراء الحب .

في تلك اللحظة ، كان هنريك يشعر أن الأرض من تحته تُسحب ببطء . صحراء الحب ؟ هل كانت تعرف ؟ هل كانت ترى كل تلك الانكسارات التي حاول دفنها في قلبه ؟ أم كانت الكلمات ضربات تقدّمها الأخت بدافع الحب ، وهي لا تدري أنها تضرب موضعًا هشًّا يتصدّع منذ سنوات ؟

استسلم أخيرًا :

حسنًا ، أخطبيها لي.

⊥

تزوج الفتاة ؟

لا.

بل هرب قبل الزفاف.

هرب كما يهرب من يرى مصيدةً تلمع في الضوء ، فيعرف أن الذهب ليس سوى سمّ.

وهرب تلك الليلة وهو يكتب في يومياته بقلمٍ عنيفٍ غاضبٍ ساخط ، قلم يكاد يمزق الورق تمزيقًا:

" السماء حرمتني مما لم تبخل به على الثيران . أيها الثور الواقف وسط الحقل دون أن تشعر بمنة السماء عليك... خذ عبقريتي وأعطني حيويتك ".

كانت الكلمات تنزل من قلبه كحجارةٍ تتدحرج في بئرٍ سحيق . كان يرى نفسه عبقريًا في الرأس ، مكسورًا في الجسد ، مقطوعًا بين عالمين: عالم يريد منه أن يكون رجلاً كاملاً ، وعالم يريده روحًا محضة ، تتوهج ثم تحترق.

⊥

فرّ إلى برلين.

هناك، حيث الشوارع لا تهتم بالهاربين ، وحيث الروح لفرط ازدحام المدينة لا يسمع صوتها إلا من يعرف كيف يصغي.

وقابل الفيلسوف كانط

اقترب منه كما يقترب شاعرٌ محطم من جبلٍ ثابت ؛ يريد أن يتعلم منه الثبات .

لكن ما وجده لم يكن ثباتًا ، بل امرأةً تقيم في بيت الفيلسوف ، وصوتًا داخليًا يصرخ بالغيرة والحسد .

كتب في يومياته :

" كان رجلًا متعجرفًا ، مخيفًا . ما الفلسفة غير تعقيدٍ للبسيط ؟ صخبٌ نفسي يمنعنا من الاستماع بهدوء النفس وقرارها ".

كان يشعر أن الفلسفة لا تُنقذه بل تحفر جراحه.

كان يريد مهربًا لا متاهة.

وحين نظر إلى كانط، لم يرَ حكمة ، بل رأى رجلاً محاطًا بالنساء... بينما هو ، هنريك ، يقف عند باب الحياة مغلقًا عليه.

⊥

وماذا عن المسرح؟

لكن المسرح في تلك الفترة كان بوابة لا تُفتح إلا بكلمةٍ صغيرة من جوته... جوته العملاق ، المسيطر على العالم الأدبي كله .

لم يجرُؤ هنريك على الذهاب إليه .

بل أرسل إليه مخطوط ميشيل كولهاس عبر أخته.

وعاد ينتظر . كان الانتظار في داخله أشبه بمقصلة.

فلما عادت أخته ، سألها :

ماذا قال جوته ؟

قالت بصوتٍ لم تجرؤ أن تنظر به في عينيه :

أبى أن يقدمها لمسرح فيمار .

لماذا ؟ لماذا ؟ وكلمته عند أمير فيمار لا تُرد ؟

هزت رأسها بتردد ، ثم قالت للمرة الأولى بصراحة :

هنريك... الرجل لا يحبك.

ضحك ضحكةً قصيرة ، مرّة ، وكأنها صدى جرحٍ قديم :

أعرف. ولكن الفنان يحب الفن ، لا صاحب الفن. أنا أحب أعمال جوته الفنان... وأكره جوته الإنسان.

قالت أخته : ابتعد عنه إذن .

رفع رأسه فجأة ، كأن صاعقة عبرت قله :

أختاه... هل يستطيع المحكوم عليه بالإعدام أن يبتعد عن جلاده ؟ إنني مربوط إلى هذا الرجل بحبال لا فكاك لي منها.

سكتت لحظة ، ثم قالت:

ستفك نفسك حين أخبرك شيئًا... لقد حاول أن يوقعني في شرك حبه . هذا كان شرطه الوحيد لمساعدتك.

اصفرّ وجه هنريك .

كانت الكلمات كالسكين.

وبدا كأن العالم حوله يتحرك بحركة بطيئة ، كأنه يرى نفسه من الخارج ، رجلاً يضحك عليه القدر بطريقة مسرحية شرسة.

جوته... يريد أخته ؟

مضت أيامٌ دخل فيها إلى أعماق لا يشتهي أحد أن يعرفها . فكر مرارًا أن يذهب إلى جوته ، ويطلق عليه النار، ثم يطلقها على نفسه .

لكنه تخلى عن فكرة القتل حين أصبح قلبه معلقًا برقصةٍ من الضوء...

امرأة.

ممثلة في مسرح فيمار . اسمها سونيا.

كانت تعرف ضعفه ، بل تعرف عجزه كما يعرف الطبيب مرض مريضه.

ورغم ذلك، أولعت به ولعًا.

كانت ترى فيه شرارات رجلٍ يريد أن يكون نارًا لكنه يتحول دخانًا كلما حاول الاشتعال.

كان يراها ملاكًا ومرآةً وسكينًا في آنٍ واحد .

شيئًا يذكّره بأنه يمكن أن يكون محبوبًا... ولو قليلًا.

وذات مساء ، وهما يسيران في ممر المسرح بين الستائر الثقيلة ورائحة الخشب القديم ، قال لها بصوتٍ خافت ، كأنه يعرض عليها قدره لا قلبه:

سونيا... أتريدين حقًا الذهاب معي إلى حيث أريد ؟

قالت بلا تردد، بنبرة امرأة التقطت اليأس وحولته إلى حبّ :

أنا معك يا حبيبي... إلى الأبد .

كلمة " الأبد " اشعلت شيئًا كان راقدًا في أعماقه منذ الطفولة .

رفع عينيه نحوها وقد اتسعتا بلهفة :

الأبد...؟ هذه أمنية حياتي.

اقترب منها خطوة ، كأنه يدخل منطقةً محرمة من روحه :

أن نذهب معًا إلى الأبدية يا سونيا. طالما فكرت في هذه الرحلة. لنتم المشروع إذن... بعد أن وجدتُ من تصحبني خلالها.

تراجعت خطوة دون أن تشعر .

كان صوته يحمل بريقًا مخيفًا... بريق رجل لا يريد حياةً جديدة ، بل نهايةً جديدة.

كان يرى الموت طريقًا ، وكانت تراه ظلامًا . وكان كل منهما يجهل أن اللحظة هي بداية النهاية... أو نهاية البداية.

⊥

في تلك الليلة، ظل هنريك ساهرًا ، يحدث نفسه كأن شخصين يسكنان بداخله:

أحدهما يريد أن يبقى ويتحدى العالم ، والآخر يريد أن يختفي قبل أن ينهار من داخله.

كان يسمع وعيه كأنه محيطٌ هادر:

لماذا أعيش ؟

لماذا أحمل هذا العجز كعباءة لا أستطيع نزعها ؟

والفن... الفن وحده لا يكفي .

جوته يقف كجبل أحاول أن أتسلقه ، فيسقط عليّ كل مرة. والنساء... يا رباه ، حتى الحب صار امتحانًا يفشل فيه جسدي قبل قلبي. هل الأبدية خلاص ؟ أم خدعة ؟

سونيا... هل ستهرب ؟ أم ستأتي ؟

وهل يكمل عاشقان رحلة إلى ما بعد الحياة... أم ينتهي أحدهما قبل الآخر؟

⊥

وفي الصباح التالي، طرقت سونيا باب غرفته .

كان المشهد بسيطًا ؛ لكنه حمل كل ما في العالم من توتر:

هي تقف مرتبكة بين الخوف والحب ، وهو يقف بين الحياة والموت.

قالت بصوت خافت :

هنريك... أريد أن أفهم... ما معنى الأبدية عندك ؟

ابتسم ابتسامة جعلت قلبها يرتعش :

معناها أن نمضي معًا... خارج هذا العالم . خارج الألم. خارج كل شيء وتحت كل شيء. أبدية كاملة.

عادت قدماه إلى الأرض ، وعاد عقلها إلى الخوف .

هنا... فهمت . وهنا... هربت . هربت كما تهرب الحياة حين تقترب منها يدٌ تريد أن تطفئها.

⊥

وبقي هنريك وحده . في شرنقته، في رائحته القديمة ، في حنينه ، في خوفه ، في عبقريته ، في عجزه.

وبقي السؤال يرّن في رأسه حتى آخر أيامه:

هل كان يبحث عن حب ؟

أم صاحب ظلّ يبحث عن ظلّ أثقل منه... ليختبئ خلفه ؟

⊥

وبين صفحات التاريخ ، لم تُكتب نهايته بوضوح .

هل كانت رحلة إلى الأبدية ؟ أم سقوطًا أخيرًا في هوة لا قرار لها ؟

كل ما تبقى... هو صوته في يومياته، وهو يقول لنفسه :

أنا لست رجلًا وُلد ليعيش في هذا العالم... بل وُلدت لأبحث عن عالمٍ لا وجود له إلا في الشعر .

وهكذا...
ترك الباب مفتوحًا ، لم يغلقه ، تركه ليفهم من يقرأ أن الحياة الأبدية ليست في هذا الكون .

مروج العدم ورفيف الروح

كانت رحلة الزواج ، في أعماق ذهن هنريك فون كليست، مجرّد ستار شفيف يخفي وراءه المعنى الأصلي : **رحلة الذهاب إلى العالم الآخر**. تتردّد العبارة في رأسه كما لو أنّها تعوي من فجوةٍ بين زمنين: رحلة... لا للارتباط... بل للعبور .

وفي تلك اللحظة التي تجمّدت فيها عيناه في خطوط الضوء المتكسّرة على نافذة غرفته ، صاحت سونيا ، الممثّلة التي أحبّته حبًّا صادقًا:

« يا إلهي! إلى العالم الآخر؟ ننتحر؟ أنت مجنون دون ريب«!

صرختها لم تكن اعتراضًا بقدر ما كانت استغاثة، فقد شعرت أن قلبه يتفلّت من يدها، كمن ينسحب إلى هاوية يعرفها وحده .وفي صمتٍ حكيمٍ يشبه استسلام القدر ، **فرت من حياته المرأة الوحيدة التي أحبّته كما لم يحبّه أحد**.

كانت تعرف حالته ، تعرف تناقضاته ، تعرف ذلك الزئبق المستعر الذي يسيل في روحه منذ ولادته ، لكنها لم تعد قادرة على الوقوف بينه وبين ظلامه الشخصي.

قالت زميلتها في المسرح حين سمعت الخبر:

« وكيف لا تفرّ ؟ وهو يدعوها إلى الموت ؟ من تحتمل قرب نجمٍ يحترق؟ «

⊥

لكنّ **هنريت فوجل**، الزوجة الصغيرة الثرية ذات الملامح التي يشوبها شيء من الهشاشة الرقيقة ، لم تهرب .

كانت تقاسي رعبًا مقيما من حدة رغبات زوجها ، رعبًا لا يشبه خوف سونيا ، بل خوفًا داخليًا متواصلاً ، خوفًا من نفسها قبل أي شيء آخر. كانت تطلّ على العالم من خلف نافذة ضبابية، وتتنفّس بنصف رئة ، كأن الحياة تُفرض عليها فرضًا .ومع ذلك... لم تهرب من مشروعه الخطير.

⊥

البداية: نوفمبر 1810

ذلك المساء، في حفل موسيقي في فيمار ، تعرّف هنريك إلى زوجها. كان اللقاء عاديًا جدًا ، لكنه حمل في بطنه بذرة المأساة التي ستكبر ككوكب مظلم.

قدّم الزوج زوجته لهنريك، وبدت اللحظة كأنها خارج الزمن .

لم يكن في الأمر شيء من الوهج، فقط ذلك الانكسار الخفيف في عينيها ، كأنّهما ظلّتا تسألان سؤالًا واحدًا لا صوت له:

هل يمكن لروحٍ أن تُشفى ؟

صار الشاعر ضيفًا محبوبا في دار الأسرة الكبيرة ، دار أنطوان فوجل ، وزير مالية أمير فيمار ، وأحد أكبر تجار النبيذ .

وفي غياب الزوج الذي كثيرًا ما يسافر ، كان هنريك يجلس مع هنريت تحت سكونٍ أبيض .جلسات طويلة لا تعوي فيها الرغبات ، جلسات ملساء كأن الزمن فيها حافي القدمين.

هناك، في ذلك الفراغ المضيء ، التقيا...**عنف رغباته** ، و**عجزها عن ممارسة حياة زوجية صحية**.

تلاقت هاويتان مختلفتان ، لا يشبهان بعضهما إلا في نقطة واحدة: **الرغبة في الفرار من الطبيعة البشرية السويّة**

هل أحبّته ؟

لم تحبّه كما أحبّته سونيا.

كانت علاقتها به شيئًا آخر... شيء أقرب إلى ذلك الحبل الرفيع الممتد بين قلبين يبحث كل منهما عن خلاصٍ غير مفهوم.

ألم تقل في رسالتها إليه:

« ليس للحبّ دخلٌ فيما فعلناه «.

وهو ما أعادت قوله حين عرض عليها مشروعه الرهيب .

قال لها :

« هنريت... الموت ليس عدمًا. إنه الخلاص من الجسد ، حياة أخرى في عالم نظيف. هل تذهبين معي ؟«

ووافقت الشابة المضطربة .

وافقت كما لو أنّها كانت تنتظر سؤالًا كهذا منذ زمن.

قالت له بصوتٍ تهتزّ فيه الطمأنينة :

« سأذهب معك راضية يا صغيري... ولن أطلب منك أن تحبّني ، وأرجو ألا تطالبني بحبّك . يكفيني أن نقطع مروج العدم معًا طفلين سعيدين ، وُلدا لتوهما . ألم تقل هذا في مسرحيتك أمير هامبورج ؟«

تهلّل وجهه دهشة :

« قرأتها؟«

« ومنذ رأيتك في حفل زواج أخي عرفت من أنت . قلت لنفسي: هذا هو... هذا الذي سيكون رفيق الرحلة . لا جنون للرغبات ، ولا رعب من اليأس... فقط رحيلٌ هادئ . تعرف الشيء الطريف يا هنريك ؟«

ابتسم وهو لا يعرف إن كان يسير نحو جنون أم خلاص .

« أجل... أعرفه خطوة خطوة«.

لكنها فجأة انفجرت بالبكاء، كأن دموعها تنفجر من كائنٍ آخر مقيم في صدرها.

« اقتلني إذن يا عزيزي... ثم ألحق بي بعدها . لقد أصبحت أحزاني وآلامي لا تُحتمل . لم أعد أقوى على مواجهة يوم جديد مع زوجي . لكن... هل تقوى أنت على قتلي ؟«

ساد الصمت . حتى الرياح التي كانت تمرّ قرب النافذة تنفّست بتوجّس.

قال أخيرًا :

« لا أظن أن في الدنيا رجلاً يعد بشيء كهذا «...

ثم، كمن يقفز من أعلى جرفٍ مبتسمًا ، قال :

« أنا ذلك الرجل يا هنريت . سأقتلك ، ثم أقتل نفسي. سنُدفن في قبر واحد. لكن... لنمنح أنفسنا يومين أو ثلاثة من السعادة النظيفة ، الطاهرة«.

⊥

فندق الزنبقة الورعة

تم العقد... ليس عقد زواج ، بل عقد فناء.

ومع ذلك ، كانا في سلامٍ مع الدنيا . كانا يلعبان ، يضحكان، يتبادلان القبلات الطفولية .

كانت أيّامًا قصيرة لكنها بدت كأنها تمتدّ إلى داخل العدم نفسه.

لماذا لا ؟

القلبان اللذان مُلئا يومًا بطاقة الحب ، تجرّدا منها الآن ، كأنّ الكيمياء البشرية نزعت منها القدرة على البقاء . و ما بقي هو ذلك السكون الذي يشبه السعادة... أو يشبه قبول النهاية.

⊥

ضفّة بحيرة وانسي

على الضفّة الهادئة ، في صباح رماديّ بطيء ، وضعا شروط العقد الرهيب موضع التنفيذ .

البحيرة كانت ساكنة كصفحة مرآة ، تشبه عالمًا لا يتنفّس .

هناك، تحت الأشجار التي تتهامس أوراقها كأنها تسجّل المأساة ، أطلق هنريك الرصاصة الأولى .

قالت له قبلها ، بابتسامة تشبه الطفولة :

« لا تنسَ… كُن لطيفًا».

فكان.

ثم أطلق الثانية على قلبه.

ذهبا…

ودفنت أوروبا معهما عصرًا كاملًا من القلق الرومانتيكي.

الناس بكوا ، والكتّاب صمتوا ، والجدران التي كانت تسمع موسيقى فيمار ارتجفت لوهلةٍ حين علمت الخبر.

⊥

جوته... والابتسامة الغامضة

كان جوته ، صاحب آلام فوتر ، الداعي الأول في أوروبا إلى فكرة الخلاص من الحياة عبر الانتحار .

سألوه:

« ماذا تقول عن كليست وهنريت ؟«

ابتسم . ابتسامة غامضة، كأنها تخرج من مكانٍ لا يعرفه أحد .

لم يقل شيئًا . لم يعترض . لم يبارك .

ترك الصمت ينساب من بين شفتيه ، فأولم النقّاد هذا الصمت ، وجعلوه معادلًا لقولٍ لا يُقال.

كثيرون اتهموه بأنه القاتل الثالث.

ليس لأنه شارك في الفعل، بل لأن فكره كان بذرةً سقطت في أرضٍ مستعدة للاشتعال.

وحين حاول جوته نفسه الانتحار في الغابة السوداء قبل أعوام ، ظنّ البعض أنه كان يفكّر في الأمر نفسه الذي فكّر فيه كليست...

وفي الزوجة الشابة الجميلة هنريت فون فوجل.

⊥

لو أمكن الإصغاء إلى الوعي في رأس هنريك في الأيام الأخيرة ، لسمع المرء هذا الاضطراب الهادئ :

هل أهرب... أم أعود ؟ هل الموت خلاص... أم فخٌّ آخر ؟ هل العدم يبتلع المرء... أم يعيده إلى طبيعته الأولى؟

كان يشعر أن عقله ذاته شرفةٌ تطلّ على محيطٍ أسود.

كل رغبةٍ بشرية كانت تبدو له صرخةً مشوّهة.

كل صباح كان يشبه ورقةً تحترق ببطء.

وكلما فكر في هنريت ، شعر أنها مثله... روحٌ متعبة لا تريد أن تُشفى.

كان داخله يحدّثه :

لستُ مذنبًا... لستُ بريئًا... أنا فقط كائنٌ يبحث عن مكان أقلّ صخبًا.

⊥

هل كان ما فعلاه جنونًا ؟

ربما.
هل كان شجاعة ؟

ربما.

هل كان ضعفًا ؟

ربما أيضًا.

التاريخ لا يفسّر .النقاد لا ينصفون . الحبّ لا يكفي . والفناء لا يقدّم إجابات.

لكن يمكن للمرء أن يتخيّل ، في ليلةٍ ما ، على ضفة بحيرة وانسي ، انعكاسًا لوجهين شابين على صفحة الماء .

ربما كانا لا يزالان هناك...

أو ربما اختفيا منذ اللحظة الأولى.

كل ما يبقى هو السؤال الذي انفجر يومها ولم يُجب عليه أحد:

هل كانا يعبران إلى العالم الآخر... أم كانا يعودان إلى نفسيهما ؟ .